قطع ذلك النزاع كله مرض الهادي الذي لم يمهله إلا ثلاثة أيام. وقد اتهم الناس أمه الخيزران بسمه لما كان منه من غل يدها عن المداخلة في أمر الملك ونهى القواد والرؤساء عن الدخول إليها وانضم إلى ذلك ما أولع به الهادي من الإساءة إلى الرشيد وإرادة عزله أو قتله وكان الرشيد براً بها وقد يؤكد ذلك أنها أرسلت إلى يحيى والهادي مريض تعلمه أن الرجل لمآبه وتأمره باستعداد لما ينبغي فاستعد يحيى للأمر أكمل استعداد وهيأ الكتب للعمال من الرشيد بوفاة الهادي وأنه قد ولاهم الرشيد ما كانوا يولون. فلما مات الهادي نفذت الكتب على البرد وكانت وفاته بعيساباذ.

٥ ـ الرشيد

هو هارون الرشيد بن محمد المهدي وأمه أم الهادي ولد بالري (سنة ١٤٥)، ولما شب كان أبوه يرشحه للخلافة فولاه مهام الأمور. جعله أمير الصائفة (سنة ١٦٣) و (سنة ١٦٥) وفي (سنة ١٦٤) ولاه المغرب كله من الأنبار إلى أطراف إفريقية فكانت الولاة ترسل من قبله وفي (سنة ١٦٦) جعله أبوه ولي عهد بعد الهادي وفي (سنة ١٦٩) وهي السنة التي توفي فيها المهدي أراد أن يقدمه على الهادي لما ظهر من شجاعته وعلو شأنه فحالت منية المهدي دون ذلك.

بويع الرشيد بالخلافة يوم أن مات أخوه الهادي في (١٤ ربيع الأول سنة ١٧٠ ـ ١٤ سبتمبر سنة ٧٨٦) وسنه (٢٥ سنة) ولم يزل خليفة إلى أن توفي في ثالث جمادى الآخرة (سنة ١٩٤ ـ ٢٤ مارس سنة ٨٠٨)، فكانت مدته (٢٣ سنة) وشهرين و (١٨ يوماً) وكان سنه إذ توفي (٤٨ سنة).

وكان يعاصره في الأندلس الأمير عبد الرحمٰن الداخل (١٣٨ ـ ١٧٢) ثم هشام بن عبد الرحمٰن (١٧٢ ـ ١٨٠) ثم الحكم بن هشام (١٨٠ ـ ٢٠٦).

وفي المغرب الأقصى إدريس بن عبد اللّٰه بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب (١٧٢ ـ ١٧٧) وهو أول المتغلبين من البيت الإدريسي ثم ابنه إدريس (١٧٧ ـ ٢١٣).

ويعاصره في فرنسا شارل الكبير المعروف بشارلمان (٧٦٧ ـ ٨١٤).

ويعاصره في مملكة الروم بالقسطنطينية قسطنطين السادس، وكانت تدبره لصغره أمه أريني (٧٨٠ ـ ٧٩٧) ثم استبدت بالملك من (سنة ٧٩٧) إلى (سنة ٨٠٢) ثم خلعت وخلعها نقفور (٨٠٢ ـ ٨١١).

الحال لعهده:

كان عهد الرشيد واسطة عقد المدة العباسية وصلت فيه الخلافة إلى أفخم درجاتها صولة

وسلطاناً وثروة وعلماً وأدباً ارتفعت فيه حضارة الدولة العلمية والأدبية والمادية إلى أرقى درجاتها مما سنفصله بعد، ووصل ترف الأمة في حاضرة الدولة وغيرها من الحواضر إلى حد يؤذن بقرب الهبوط، وكان في عهد الرشيد من كبار الرجال من تزدان بهم الممالك من رجال الإدارة والحرب، فعظمت الهيبة في الداخل والخارج وكانت أخلاق هارون مما يساعد على هذا الرقي كما سنبين ذلك كله مفصلاً، ونحن الآن ذاكرون الحوادث الكبرى التي كان لها أثر في مستقبل الأمة.

الطالبيون:

كان الطالبيون شغل بني العباس الشاغل فإنهم كانوا لا يزالون متطلعين إلى نيل الخلافة كما كانت شيعتهم تتحين الفرصة الملائمة لإقامة دولتهم وكان بنو العباس من أجل ذلك، لا يأمنون جانبهم لكن الرشيد في أول ولايته أراد أن يستميل قلوبهم بشيء من الإحسان إليهم وكان أول ما فعله معهم أن رفع الحجر عمن كان منهم ببغداد وسيرهم إلى المدينة ما خلا العباس بن الحسن بن عبد اللّه بن علي وكان أبوه الحسن فيمن أشخص. ومع هذا الذي بدا منه لم يتركه الطالبيون على سجيته فكان من أول الخارجين عليه يحيى بن عبد اللّه بن الحسن بن الحسن بن علي وهو من الناجين من وقعة فخ التي كانت في عهد الهادي ذهب إلى بلاد الديلم، فاشتدت شوكته بها وقوي أمره ونزع إليه الناس من الأمصار والكور، فاغتم الرشيد لذلك وترك شرب النبيذ ثم ندب إلى قتاله الفضل بن يحيى بن خالد في خمسين ألفاً ومعه صناديد القواد فسار سمت يحيى فكاتبه ورفق به واستماله وحذره وأشار عليه وبسط أمله وكاتب صاحب الديلم وجعل له ألف ألف درهم على أن يسهل له خروج يحيى وحملت إليه فأجاب يحيى إلى الصلح والخروج على يديه على أن يكتب له الرشيد أماناً بخطه فكتب الفضل بذلك إلى الرشيد فسره وعظم موقعه عنده وكتب الأمان وأشهد عليه الفقهاء والقضاة وجلة بني هاشم ومشايخهم ووجه به مع جوائز وكرامات وهدايا فوجه الفضل عليه بذلك إلى يحيى فقدم وورد به الفضل بغداد فلقيه الرشيد بكل ما أحب وأمر له بمال كثير وأجرى عليه أرزاقاً سنية وأنزله منزلاً سرياً بعد أن أقام بمنزل يحيى بن خالد أياماً وكان يتولى أمره بنفسه ولا يكل ذلك إلى غيره وأمر الناس بزيارته بعد انتقاله من منزل يحيى والتسليم عليه وبلغ الرشيد الغاية من إكرام الفضل لذلك وسنبين خاتمة أمره في حديث نكبة البرامكة ولم يترتب على خروج يحيى هذا انفصال شيء من جسم الخلافة الإسلامية.

إدريس بن عبد الله:

كان إدريس بن عبد اللّه بن الحسن ممن هرب من وقعة فخ، وهذا أخو يحيى سار إلى مصر

ومنها اتجه إلى بلاد المغرب الأقصى فالتف عليه برابرة أوربة فكون هناك أول خلافة للعلويين وهي دولة الأدارسة، وكان نزوله بمدينة وليلى (سنة ١٧٢)، وكانت بيعته في تلك السنة، ولما بلغ هارون أن أمر إدريس قد استقام ببلاد المغرب وكثرت جنوده وفتح بلاد تلمسان وأنه عازم على غزو إفريقيا همّ أن يرسل إليه جيشاً ولكن عدل عن ذلك لبعد الشقة واختار رجلاً داهية اسمه سليمان بن جرير ويعرف بالشماخ وطلب منه أن يحتال في قتل إدريس وزوده مالاً وطرفاً يستعين بها على أمره فسافر الرجل ووصل إلى إدريس مظهراً النزوع إليه متبرئاً من الدعوة العباسية فقبله إدريس واختص به وأعجب بحديثه ولما انتهز الفرصة سمه إما في طيب وإما في سنون وفر هارباً، فمات إدريس (سنة ١٧٧) ولم يكن له ولد إلا أمة كانت حاملاً فانتظروا وضع حملها فوضعت ولداً ذكراً سمي إدريس على اسم أبيه وبايعوه بالخلافة واستمرت دولة الأدارسة بالمغرب رغم أنف الرشيد.

بذلك تم خروج إقليمين عظيمين عن الخلافة العباسية وهما بلاد الأندلس على يد عبد الرحمٰن بن معاوية الأموي وبلاد المغرب الأقصى مع تلمسان على يد إدريس بن عبد اللّٰه.

كان الرشيد بسبب هذه الحوادث يخاف الطالبيين جداً ومن اتهم من الناس بالميل إليهم عاقبه أشد العقوبات وأخذ موسى بن جعفر المعروف بالكاظم إلى بغداد فأقام بها إلى أن مات وهو السادس من أئمة الشيعة الإمامية.

الخارجون عليه من غير العلويين:

لم يكن اضطراب الدولة وزعزعة الأمن ناشئاً من العلويين وحدهم، بل كان هناك فريق من الأمة ينعي على الخلفاء استبدادهم وخروجهم عما توجبه الأوامر الشرعية من كتاب اللّٰه وسنّة نبيه وقد اتصل أمرهم من لدن أن خرجوا على علي بن أبي طالب إلى زمن الرشيد إلا أن خلفاء بني أمية قد أخفتوا صوتهم بما كانوا يجردون لهم من الجيوش الجرارة على يد أمهر القواد كالمهلب بن أبي صفرة وغيره ومع ذلك فإنهم لم يقدروا على إفناء روحهم الثورية من الأمة، فكان لا يزال يخرج منهم خارجة متى ظهر فيهم ذو مقدرة وكفاءة لخوض الحروب. وقد اشتهر زمن الرشيد بخوارج أولي بأس شديد أعادوا تاريخ أسلافهم في عهد بني أمية بعد أن كانت نيرانهم قد خبت مدة طويلة وأشهر هؤلاء الخوارج ذكراً وأعظمهم أثراً الوليد بن طريف الشاري الشيباني كان بطلاً شجاعاً يقيم بالجزيرة بنواحي نصيبين خرج على الرشيد (سنة ١٧٨) ففتك بإبراهيم بن خازم بنصيبين ثم مضى منها إلى أرمينية ثم رجع إلى الجزيرة (سنة ١٨٩) واشتدت بها شوكته وكثرت أتباعه بعد أن هزم للرشيد جيوشاً عدة فاهتم الرشيد بأمره جد الاهتمام ورأى أن يوجه إليه من ربيعة من يمكنه القيام في وجهه فوقع اختياره على يزيد بن مزيد الشيباني وهو ابن أخي معن بن

زائدة فذهب يزيد وصار يخاتل الوليد ويماكره متبعاً في ذلك طريقة المهلب بن أبي صفرة مع قطري بن الفجاءة، وكانت البرامكة منحرفين على يزيد فقالوا له: إنه يراعيه لأجل الرحم وإلا فشوكة الوليد يسيرة فوجه إليه الرشيد كتاباً مغضباً وقال: ولو وجهت أحداً من الخدم لقام بأكثر مما تقوم به ولكنك مداهن متعصب وأمير المؤمنين يقسم باللّه لئن أخرت مناجزة الوليد ليبعثن إليك من يحمل رأسك إلى أمير المؤمنين فلقي يزيد الوليد، ولما اصطف جيشاهما وشبت الحرب ناداه: يا وليد ما حاجتك إلى التستر بالرجال ابرز لي، فقال: نعم واللّه، فبرز الوليد وهو يرتجز:

أنا الوليد بن طريف الشاري قسورة لا يصطلي بناري

جوركم أخرجني من داري

وبرز إليه يزيد ووقف العكران فلم يتحرك منهما أحد فتطاردا ساعةً وكل واحد منهما لا يقدر على صاحبه حتى مضت ساعات من النهار فأمكنت يزيد فيه الفرصة فضرب رجله فسقط وصاح بخيله فسقطوا عليه واحتزوا رأسه وكانت هذه الواقعة بالحديثة على فراسخ من الأنبار (سنة ١٧٩) ثم وجه يزيد برأس الوليد وبكتاب الفتح إلى الرشيد. ومن ألطف الرثاء ما قالته الفارعة أخت الوليد:

بتل نهاكي رسم قبر كأنه على جبل فوق الجبال منيف

تضمن محدباً عد ملياً وسؤدداً وهمة مقدام ورأس حصيف

فيا شجر الخابور مالك مورقاً كأنك لم تجزع على ابن طريف

فتى لا يحب الزاد إلا من التقى ولا المال إلا من قنا وسيوف

ولا الذخر إلا كل جرداء صلدم معاودة للكر بين صفوف

كأنك لم تشهد هناك ولم تقم مقاماً على الأعداء غير خفيف

ولم تستلم يوماً لورد كريهة من الرد في خضراء ذات رفيف

ولم تسع يوم الحرب والحرب لاقح وسمر القنا ينكرانها بألوف

حليف الندى ما عاش يرضى به الندى فإن مات لا يرضى الندى بحليف

فقدناك فقدان الشباب وليتنا فديناك من فتياننا بألوف

وما زال حتى أزهق الموت نفسه شجا لعدو أو نحا لضعيف

ألا يا لقوم للحمام وللبلى وللأرض همت بعده برجوف

ألا يا لقومي للنوائب والردى ودهر ملح بالكرام عنيف

وللبدر من بين الكواكب إذ هوى وللشمس لما أزمعت لكسوف

وللبيت كل الليث إذ يحملونه إلى حفرة ملحودة وسقيف

ألا قاتل اللّه الحشا حيث أضمرت ... فتى كان للمعروف غير عيوف
فإن يك أوداه يزيد بن مزيد ... فرب زحوف لفها بزحوف
عليه سلام اللّه وقفاً فإنني ... أرى الموت وقاعاً بكل شريف

خطر الشرق:

وضح الخطر على الدولة من قبل المغرب فقد انتفضت أطرافها بخروج عبد الرحمٰن بن معاوية وإدريس بن عبد اللّه وليس الخطر على هذا الطرف بأقل أثراً من الخطر على الطرف الآخر وهو مشرق الدولة وراء نهر جيحون فقد حصل ما يؤذن بخطر مستقبل من جراء والي خراسان.

استشار الرشيد وزيره يحيى بن خالد في تولية علي بن عيسىٰ بن ماهان خراسان فأشار إليه ألا يفعل، فخالفه الرشيد وولاه إياها، فلما شخص إليها ظلم الناس وجمع مالاً جليلاً ووجه إلى الرشيد بهدايا لم ير مثلها من الخيل والرقيق والثياب والأموال فقعد الرشيد بالشماسية على دكان مرتفع حين وصل إليه ما بعث به علي بن عيسى وإلى جانبه يحيى بن خالد فقال له: هذا الذي أشرت ألا نولّيه هذا الثغر فقد خالفناك فيه فكان في خلافك بركة وهو كالمازح معه إذ ذاك فقال يحيى: يا أمير المؤمنين جعلني اللّه فداك أنا وإن كنت أحب أن أصيب في رأيي وأوفق في مشورتي فأنا أحب إلي من ذلك أن يكون رأي أمير المؤمنين أعلى وفراسته أثقب وعلمه أكثر من علمي ومعرفته فوق معرفتي وما أحسن هذا وأكثره إن لم يكن فيه ما يكره أمير المؤمنين، وأسأل اللّه أن يعيذه ويعفيه من سوء عاقبته ونتائج مكروهه. قال: وما ذاك؟ قال: أحسب أن هذه الهدايا ما اجتمعت له حتى ظلم فيها الأشراف وأخذ أكثرها ظلماً وتعدياً ولو أمرني أمير المؤمنين لأتيته بصفتها الساعة من بعض تجار الكرخ، قال: وكيف ذاك؟ قال: قد ساومنا عوناً على السفط الذي جاءنا به من الجوهر وأعطيناه به سبعة آلاف ألف فأبى أن يبيعه فأبعث إليه الساعة بحاجبي يأمره أن يرده إلينا لنعيد فيه نظرنا فإذا جاءنا به جحدناه وربحنا سبعة آلاف ألف؛ ثم كنا نفعل بتاجرين من تجار الكرخ مثل ذلك وعلى أن هذا أسلم عاقبة وأستر أمراً من فعل علي بن عيسى في هذه الهدايا بأصحابها فأجمع لأمير المؤمنين في ثلاث ساعات أكثر من قيمة هذه الهدايا بأهون سعي وأيسر أمر وأجمل جباية مما جمعه علي في ثلاث سنين. فوقرت في نفس الرشيد وحفظها وأمسك عن ذكر علي بن عيسى فلما عاث علي بن عيسى بخراسان ووتر أهلها وأخذ أموالهم واستخف برجالهم كتب رجال من كبرائها ووجهائها إلى الرشيد وكتب جماعة من كورها إلى قراباتهم وأصحابهم يشكون سوء مسيرته وخبث طعمته ورداءة مذهبه ونسأل أمير المؤمنين أن يبدلها به فدعا يحيى بن خالد فشاوره في أمر علي بن عيسى وفي صرفه، فأشار عليه بيزيد بن مزيد فلم يقبل مشورته. وكان قيل للرشيد: إن علي بن عيسى أجمع على خلافك فشخص إلى

الري من أجل ذلك فعسكر بالنهروان لثلاث عشرة بقيت من جمادى الأولى (سنة ١٨٩)، ثم سار إلى الري ثم إلى قرماسين، ثم عاد إلى الري فأقام بها نحو أربعة أشهر حتى قدم عليه علي بن عيسى من خراسان بالأموال والهدايا والطرف، وأهدى بعد ذلك إلى جميع من كان معه من ولده وأهل بيته وكتابه وخدمه وقواده على قدر طبقاتهم ومراتبهم، فرأى الرشيد منه خلاف ما كان ظن به وغير ما كان يقال فيه فرضي عنه ورده إلى خراسان وخرج وهو مشيع له.

عاد علي بن عيسى إلى مرو ناقماً على كل من يظن أنه تكلم فيه بسوءٍ فآذى الناس وأخذ منهم الأموال ظلماً. وحصل في تلك الظروف أن أعلن العصيان رافع بن ليث بن نصر بن سيار وجده نصر من قد عرفتم في التاريخ الأموي. أما رافع فيظهر أنه كان ممن يتخذ دين اللّه هزواً ولعباً ويتضح ذلك من السبب الذي من أجله ثار. كان يحيى بن الأشعث الطائي تزوج ابنة عمه وكانت ذات يسار ولسان فأقام بمدينة السلام وتركها بسمرقند، فلما طال مقامه بها وبلغها أنه اتخذ أمهات أولاد التمست سبباً للتخلص منه وبلغ رافعاً خبرها فطمع فيها وفي مالها فدس إليها من قال لها إنه لا سبيل لها إلى التخلص من صاحبها إلا أن تشرك باللّه وتحضر لذلك قوماً عدولاً وتكشف شعرها بين أيديهم ثم تنوب فتحل للأزواج ففعلت ذلك وتزوجها رافع وبلغ الخبر يحيى بن الأشعث فرفعه إلى الرشيد فكتب إلى علي بن عيسى يأمره أن يفرق بينهما وأن يعاقب رافعاً ويجلده الحد ويقيده ويطوف به في مدينة سمرقند مقيداً على حمار حتى يكون عظة لغيره فدرأ عنه سليمان بن حميد الحد وفعل به العقوبات الأخرى وحبسه فهرب من الحبس ولحق بعلي بن عيسى طالباً أمانه فلم يجبه علي إليه، وهمّ بضرب عنقه فكلمه فيه ابنه عيسى بن علي وجدد طلاق المرأة وأذن له في الانصراف إلى سمرقند فانصرف إليها فوثب بعاملها سليمان بن حميد فقتله فوجه إليه علي بن عيسى ابنه عيسى وكان أمره قد استفحل بسمرقند وبايعه الناس وطابقه من وراء النهر فلقي رافع عيسى بن علي وهزمه. فأخذ علي في فرض الرجال والتأهب للحرب. أما رافع فإنه غلظ أمره وكاتبه أهل نسف يعطونه الطاعة ويسألونه أن يوجه إليهم من يعينهم على قتل عيسى بن علي فوجه صاحب الشاش في أتراكه وقائداً من قواده فأتوا عيسى بن علي فأحدقوا به وقتلوه ولم يعرضوا لأصحابه، وكان علي بن عيسى في ذلك الوقت ببلخ، فلما سمع ما أصاب ابنه خرج عنها حتى أتى مرو مخافة أن يسير إليها رافع فيستولي عليها وكان عيسى ابنه قد دفن في بستان داره ببلخ أموالاً عظيمة قيل: إنها كانت ثلاثين ألف ألف درهم، ولا يعلم بها علي بن عيسى ولا أطلع عليها إلا جارية كانت له، فلما شخص علي إلى بلخ أطلعت الجارية على ذلك بعض الخدم وتحدث به الناس فاجتمع قراء أهل بلخ ووجوهها فدخلوا البستان فانتهبوه وأباحوه للعامة فبلغ الرشيد الخبر فقال: خرج من بلخ بغير إذني وخلف مثل هذا المال وهو يزعم أنه قد أفضى إلى

حلي نسائه فما أنفق على محاربة رافع. في ذلك الوقت، تبينت له خيانة الرجل وجبنه وسوء سياسته لأهل ولايته فعزم على خلعه ومصادرته فأحضر هرثمة بن أعين وهو قائد شجاع بطل، فقال له: إني لم أشاور فيك أحداً ولم أطلعه على سري فيك وقد اضطربت علي ثغور المشرق وأنكر أهل خراسان أمر علي بن عيسى إذ خالف عهده ونبذه وراء ظهره وقد كتب يستمد ويستجيش وأنا كاتب إليه فأخبره أني أمده بك وأوجه إليه معك من الأموال والسلاح والقوة والعدة وما يطمئن إليه قلبه وتتطلع إليه نفسه وأكتب معك كتاباً بخطي فلا تفضه ولا تطلعن فيه حتى تصل إلى مدينة نيسابور فإذا نزلتها فاعمل بما فيه وامتثله ولا تجاوزه إن شاء اللّه وأنا موجه معك رجاء الخادم بكتاب أكتبه إلى علي بن عيسى بخطي ليتعرف ما يكون منك ومنه وهون عليه أمر علي فلا تظهرنه عليه ولا تعلمنه ما عزمت عليه وتأهب للمسير وأظهر لخاصتك وعامتك أني أوجهك مدداً لعلي بن عيسى وعوناً له. وكان كتابه لعلي بن عيسى مبدوءاً بهجر وفيه توبيخ وتقريع له على مخالفته وإعلام له بما أمر هرثمة أن يفعله معه. أما عهده لهرثمة فهو:

(هذا ما عهد هارون الرشيد،أمير المؤمنين إلى هرثمة بن أعين حين ولاه ثغر خراسان وأعماله وخراجه أمره بتقوى اللّه وطاعته ورعاية أمر اللّه ومراقبته وأن يجعل كتاب اللّه إماماً له في كل ما هو بسبيله فيحل حلاله ويحرم حرامه، ويقف عند متشابهه ويسأل عنه أولي الفقه في دين اللّه وأولي العلم بكتاب اللّه أو يرده إلى إمامه ليريه اللّه عز وجل فيه رأيه ويعزم له على رشده. وأمره أن يستوثق من الفاسق علي بن عيسى وولده وعماله وكتابه وأن يشد عليهم وطأته ويحل بهم سطوته ويستخرج منهم كل مال يصلح عليهم من خراج أمير المؤمنين وفيء المسلمين فإذا استنظف ما عندهم وقبلهم من ذلك نظر في حقوق المسلمين والمعاهدين وأخذهم بحق كل ذي حق حتى يرده إليه، فإن ثبتت قبلهم حقوق لأمير المؤمنين وحقوق المسلمين فدافعوا بها وجحدوها أن يصب عليهم سوط عذاب اللّه وأليم نقمته حتى يبلغ بهم الحال التي إن تخطاها بأدنى أدب تلفت نفوسهم وبطلت أرواحهم فإذا خرجوا من حق كل ذي حق أشخصهم كما تشخص العصاة من خشونة الوطأة وخشونة المطعم والمشرب وغلظ الملبس مع الثقات من أصحابه إلى باب أمير المؤمنين إن شاء اللّه فاعمل يا أبا حاتم بما عهدت إليك فإني آثرت اللّه وديني على هواي وإرادتي فكذلك فليكن عملك وعليه فليكن أمرك ودبر في عمال الكور الذين تمر بهم في صعودك ما لا يستوحشون معه إلى أمر يريبهم وظن يرعبهم وأبسط من آمال أهل ذلك الثغر ومن أمانهم وعذرهم ثم اعمل بما يرضي اللّه منك وخليفتك ومن ولاك اللّه أمره إن شاء اللّه. هذا عهدي وكتابي بخطي وأنا أشهد اللّه وملائكته وحملة عرشه وسكان سمواته وكفى باللّه شهيداً) وكتب أمير المؤمنين بخط يده لم يحضره إلا اللّه وملائكته.

شخص هرثمة وقد اختار من ثقات رجاله ولاة على كور خراسان مع وصيتهم بكتمان أمرهم إلى اليوم الذي عينه لهم حتى إذا وصل مرو خرج علي بن عيسى لمقابلته لأن هرثمة لم يدع مجالاً للريبة إلى قلبه، فلما دخلا المنزل أطلعه على كتاب الرشيد إليه وأول كلمة منه تنبىء عن يقينه فأسقط في يده وبعد تلاوته الكتاب قبض عليه وقيده وكذلك قيد أولاده وكتابه وعماله ثم ذهب هرثمة إلى المسجد الجامع فخطب وبسط من آمال الناس وأخبرهم أن أمير المؤمنين ولاه ثغورهم لما انتهى إليه من سيرة الفاسق علي بن عيسى وما أمره به فيه وفي عماله وأعوانه وأنه بالغ من ذلك ومن إنصاف العامة والخاصة والأخذ لهم بحقوقهم أقصى مواضع الحق وأمر بقراءة عهده عليهم فأظهروا السرور بذلك وانفسحت آمالهم وعظم رجاؤهم وعلت بالتكبير والتهليل أصواتهم وكثر الدعاء لأمير المؤمنين بالبقاء وحسن الجزاء. ثم صادر جميع ما يملكه علي بن عيسى هو وأولاده وكتابه وأرسل كل ذلك إلى الرشيد وقالوا إنه حمل على (١٥٠٠ بعير) وأرسل هرثمة إلى الرشيد يخبره بما صنع. ولما استوفى ما عند علي بن عيسى أرسله هو وأولاده في الأغلال إلى بغداد.

وقد اهتم هرثمة بأمر رافع ولكن استفحال أمره دعا الرشيد إلى الذهاب بنفسه لحربه فشخص يريد خراسان في ربيع الآخر (سنة ١٩٣) وهي السفرة التي مات فيها بطوس فلم يصل إلى ما أراد وبقي رافع على حاله حتى أطاع المأمون من غير قتال.

وزراء الرشيد:

أول وزراء الرشيد يحيى بن خالد بن برمك. ولما كانت أسرة البرامكة من أعظم الأسر تاريخاً وأشهرها اسماً في صدر الدولة العباسية أحببنا أن نشرح أوليتها.

أسرة البرامكة:

تنسب هذه الأسرة إلى جدها برمك وهو من مجوس بلخ، وكان يخدم النوبهار وهو معبد كان للمجوس بمدينة بلخ توقد فيه النيران، فكان برمك وبنوه سدنة له، وكان برمك عظيم المقدار عندهم ولم يعلم هل أسلم أو لا؟ لما جاءت الدعوة العباسية خراسان، كان خالد بن برمك من أكبر دعاتها وزعمائها وكان ذا صفات عالية أهلته للسيادة ورفعة القدر في صدر الدولة حتى استوزره أبو العباس السفاح بعد هلاك أبي سلمة حفص بن سليمان الخلال، فكان مدبر أمره غير أنه لم يكن يسمى وزيراً واستمر على ذلك حياة أبي العباس، فلما ولي أبو جعفر أبقى خالداً في منصبه مدة ثم ولاه فارس بتدبير أبي أيوب المورياني الذي تولى الوزارة بعده فأقام فيها مدة، ثم انكسرت عليه جملة من المال فحمل إلى بغداد وطولب بالمال، ذكر الطبري في حوادث (١٥٨) أن أبا جعفر ألزمه ثلاثة آلاف ألف ونذر دمه وأجله ثلاثة أيام ولم يذكر سبب ذلك فاستعان في

ذلك أصدقاءه فأعانه كثير منهم حتى جمع في يومين ألفي ألف وسبعمائة ألف درهم. وفي غد ذلك اليوم الذي أصيب فيه بهذه المصيبة ولاه المنصور ولاية الموصل، وكان ممدوح الولاية حسن السيرة. قال أحمد بن محمد بن سوار الموصلي: ما هبنا قط أميراً هيبتنا خالد بن برمك من غير أن تشتد عقوبته ولا نرى منه جبرية، ولكن هيبة كانت له في صدورنا والياً على الموصل حتى مات أبو جعفر وكانت وفاة خالد (سنة ١٦٣) في أوائل خلافة المهدي.

أما يحيى بن خالد فكان واحد الدنيا علماً وأدباً وفضلاً ونبلاً وجوداً رباه أبوه فأحسن تربيته، وكان مولده (سنة ١٢٠)، فكانت سنه حين جاءت الدولة العباسية اثنتي عشرة سنة فتربّى في كنف الدولة وكان عضد أبيه في ملماته وشدائده وقد اختاره المنصور لولاية أذربيجان (سنة ١٥٨)، قال له: أردتك لأمر مهم من الأمور واخترتك لثغر من الثغور وكانوا لا يولون ثغورهم إلا من كانت ثقتهم به عظيمة فسار في ولايته سيرة أبيه في الموصل واستمر بها حتى مات المنصور.

وفي (سنة ١٦٣) اختاره المهدي ليكون كاتباً ووزيراً لابنه هارون فكان يدبر أمره وهارون لا يناديه إلا بيا أبي، وذلك لأن زوجة يحيى أم ابنه الفضل أرضعت هارون بلبان ابنها الفضل وأرضعت الخيزران أم هارون الفضل بلبان ابنها هارون وخرج معه في غزوة الصائفة (سنة ١٦٣) وكان على أمر العسكر ونفقاته وكتابته والقيام بأمره. وكان في تلك الغزوة الربيع بن يونس الحاجب غازياً عن المهدي فكان الذي بين الربيع ويحيى على حسب ذلك، وكان هارون يشاورهما ويعمل برأيهما ولما ندب المهدي يحيى لذلك المهم قال له: إني قد تصفحت أبناء شيعتي وأهل دولتي واخترت منهم رجلاً لهارون ابني أضمه إليه ليقوم بأمر عسكره ويتولى كتابته فوقعت عليك خبرتي له ورأيتك أولى به إذ كنت مربيه وخاصته وقد وليتك كتابته وأمر عسكره.

ولما ولى المهدي ابنه هارون المغرب كله (سنة ١٦٤) من الأنبار إلى إفريقية أمر يحيى بن خالد أن يتولى ذلك، فكانت إليه أعماله ودواوينه يقوم بها ويخلفه على ما يتولى منها واستمر على حاله تلك إلى أن مات المهدي ولما ولي الهادي أبقاه على حاله مع هارون حتى إذا خطر ببال الهادي أن يخلع أخاه من ولاية العهد ابتدأت محنة يحيى فإنه هو الذي جرأه على الاستمساك بحقه الذي منحه إياه أبوه المهدي، وكان هارون قد طاب نفساً بالخلع فقال له يحيى: لا تفعل فقال: أليس يترك لي الهنيء والمريء فهما يسعانني وأعيش مع ابنة عمي، وكان هارون يجد بأم جعفر وجداً شديداً فقال له يحيى: وأين هذا من الخلافة ولعلك ألا يترك هذا في يدك حتى يخرج أجمع ومنعه من الإجابة فسعى إلى الهادي بيحيى. وقيل له: إنه ليس عليك من هارون خلاف وإنما يفسده يحيى بن برمك فأرسل إليه الهادي، وقال له: لم تدخل بيني وبين أخي وتفسده

علي؟ فقال: يا أمير المؤمنين، من أنا حتى أدخل بينكما؟ إنما صيرني المهدي معه وأمرني بالقيام بأمره فقمت بما أمرني به ثم أمرتني بذلك فانتهيت إلى أمرك. ثم قال له لما كلمه في أمر الخلع: يا أمير المؤمنين إنك إن حملت الناس على نكث الأيمان هانت عليهم أيمانهم وإن تركتهم على بيعة أخيك ثم بايعت لجعفر من بعده كان ذلك أوكد لبيعته فقال: صدقت ونصحت ولي في هذا تدبير، ومما قاله في هذا: يا أمير المؤمنين أرأيت إن كان الأمر أسأل اللّه ألاّ نبلغه وأن يقدمنا قبله أتظن أن الناس يسلمون الخلافة لجعفر وهو لم يبلغ الحلم ويرضون به لصلاتهم وحجهم وغزوهم. قال: واللّه ما أظن ذلك. قال: يا أمير المؤمنين أفتأ من أن يسمو إليها أهلك وجلتهم مثل فلان وفلان ويطمع فيها غيرهم فتخرج من ولد أبيك، فقال له: نبّهتني يا يحيى. قال: وكان يقول ما كلمت أحداً من الخلفاء كان أعقل من موسى وقال له: لو أن هذا الأمر لم يعقد لأخيك، أما كان ينبغي أن تعقد له فكيف بأن تحله عنه وقد عقده المهدي له، ولكن أرى أن تقر هذا الأمر يا أمير المؤمنين على حاله فإذا بلغ جعفر وبلّغ اللّه به أتيته بالرشيد فخلع نفسه وكان أول من يبايعه ويعطيه صفقة يده فقبل الهادي قوله. ولكن يظهر أن الذي كان يحرك الهادي إلى خلع الرشيد مما لا تمكن مقاومته فاشتد غضبه منه وضيق عليه فقال يحيى لهارون استأذن في الخروج إلى الصيد، فإذا خرجت فاستبعد ودافع الأيام، ففعل ذلك هارون وخرج إلى قصر مقاتل فأقام به أربعين ليلة حتى أنكر الهادي أمره وعمه احتباسه وجعل يكتب إليه ويصرفه فتعلل عليه حتى تفاقم الأمر وأظهر شتمه وبسط مواليه وقواده ألسنتهم فيه وكان الذي ينوب عن يحيى والرشيد بالباب الفضل بن يحيى فكان يكتب إلى أبيه بكل ما يحدث.

ولما لم ير الهادي يحيى بن خالد يرجع عما كان عليه لهارون بما بذل له من إكرام ولا إقطاع ولا صلة بعث إليه يتهدده بالقتل إن لم يكف عنه ولم تزل الحال على ذلك من الخوف والخطر حتى اعتل موسى علته التي مات فيها فقام يحيى بأمر الرشيد خير قيام ودبره أحسن تدبير فقلده الرشيد وزارته وزارة تفويض حيث قال له: قلدتك أمر الرعية وأخرجته من حقي إليك فاحكم في ذلك بما ترى من الصواب واستعمل من رأيت واعزل من رأيت وامض الأمور على ما ترى، ودفع إليه خاتمه وفي ذلك يقول إبراهيم الموصلي:

ألم تر أن الشمس كانت سقيمة ... فلما ولي هارون أشرق نورها
بيمن أمين اللّه هارون ذي الندى ... فهارون واليها ويحيى وزيرها

وكانت الخيزران هي الناظرة في الأمور وكان يحيى يعرض عليها ويصدر عن رأيها وكان يحيى بما أوتيه من كريم الخلق وسماحة النفس وجودة الكتابة غرة في دولة الرشيد وكان قبلة الآمال ومتجع الرواد. وقد ضم إليه الرشيد في (سنة ١٧١) خاتم الخلافة فاجتمعت له الوزارتان.

وكان ليحيى أربعة من الأولاد كلهم سادة نجب وهم الفضل وجعفر ومحمد وموسى بنو يحيى.

فأما الفضل فهو أكبر الإخوة ولد أواخر (سنة ١٤٨) قبل ولادة الرشيد بأيام وقد أرضعت كلاً منهما أم الآخر، ولما شب كان لأبيه يحيى كما كان يحيى لأبيه خالد، ولما ولي أبوه وزارة الرشيد كان الفضل ينوب عنه في جلائل أعماله ولما ولد محمد الأمين جعله الرشيد في حجر الفضل حتى يقوم بتربيته فكان له أباً.

وفي (سنة ١٧٦) كان خروج يحيى بن عبد اللّه بن الحسن ببلاد الديلم فأهم أمره الرشيد واختار له أوثق الناس عنده وهو الفضل بن يحيى فولاه كور الجبال والري وجرجان وطبرستان وقومس ودنباوند والرويان ولم يزل يحتال في أمر يحيى حتى استنزله من معقله بأمان من غير أن يريق في ذلك نقطة دم إلا حسن السياسة، وقد عرف الرشيد ذلك للفضل فبلغ الغاية في إكرامه ومدحه شعراء العصر بسبب ذلك فقال مروان بن أبي حفصة:

ظفرت فلا شلت يد برمكية ... رتقت بها الفتق الذي بين هاشم
على حين أعيا الراتقين التئامه ... فكفوا وقالوا ليس بالمتلائم
فأصبحت قد فازت يداك بخطة ... من المجد باقٍ ذكرها في المواسم
وما زال قدح الملك يخرج فائزاً ... لكم كلما ضمت قداح المساهم

وقال أبو ثمامة الخطيب:

للفضل يوم الطالقان وقبله ... يوم أناخ به على خاقان
ما مثل يوميه اللذين تواليا ... في غزوتين توالتا يومان
سد الثغور ورد ألفة هاشم ... بعد الشتات فشملها متدان
عصمت حكومته جماعة هاشم ... من أن يجرد بينها سيفان
تلك الحكومة لا التي عن لبها ... عظم النبا وتفرق الحكمان

وفي (سنة ١٧٨) ولاه الرشيد خراسان وثغورها فأحسن السيرة بها وبنى بها الرباطات والمساجد. وغزا ما وراء النهر فخرج إليه ملك أشروسنة وكان ممتنعاً، ويقال إنه اتخذ بخراسان جنداً من العجم سماهم العباسية، وجعل ولاءهم له وإن عدتهم بلغت (٥٠٠٠٠٠ رجل) وأنه قدم منهم بغداد عشرون ألف رجل فسموا ببغداد الكرنبية وخلف الباقي منهم بخراسان على أسمائهم ودفاترهم وفي ذلك يقول مروان بن أبي حفصة.

ما الفضل إلا شهاب لا أقول له ... عند الحروب إذا ما تأفل الشهب

حام على ملك قوم غر سهمهم ... من الوراثة في أيديهم سبب
أمست يد لبني ساقي الحجيج بها ... كتائب مالها في غيرهم أرب
كتائب لبني العباس قد عرفت ... ما ألف الفضل منها العجم والعرب
أثبت خمس مئين في عدادهم ... من الألوف التي أحصت لك الكتب
يقارعون عن القوم الذين هم ... أولى بأحمد في الفرقان إن نسبوا
إن الجواد ابن يحيى الفضل لا ورق ... يبقى على جود كفيه ولا ذهب
ما مر يوم له من شد مئزره ... إلا تمول أقوام بما يهب
كم غاية في الندى والبأس أحرزها ... للطالبين مداها دونه تعب
يعطي اللها حين لا يعطي الجواد ولا ... ينبو إذا سلت الهندية القضب
ولا الرضا والرضا للّه غايته ... إلى سوى الحق يدعوه ولا الغضب
قد فاض عرفك حتى ما يعادله ... غيث مغيث ولا بحر له حدب

ولما قدم من خراسان خرج الرشيد إلى بستان أبي جعفر يستقبله وتلقاه بنو هاشم والناس من القواد والكتاب والأشراف فوصلهم وأحسن جوائزهم وكان رجوعه بعد أن حسن أحوال خراسان وأذل العاصين بأطرافها وذلك (سنة ١٧٩)، وكان الفضل في جميع الأعمال التي أسندت إليه كفوءاً نزيهاً، وكان من أكثر البرامكة كرماً، وكان أكرم من أخيه جعفر، وكان الناس يسمونه في بدء أعماله بالوزير الصغير واستمر محمود السيرة مرفوع الرأس في المهمات حتى كانت النكبة الآتي ذكرها.

وأما جعفر فهو ثاني أولاد يحيى وكان من علو القدر ونفاذ الأمر وبعد الهمة وعظم المحل وجلالة المنزلة عند الرشيد بحالة انفرد بها ولم يشارك فيها وكان سمح الأخلاق طلق الوجه ظاهر البشر، وأما جوده وسخاؤه وبذله وعطاؤه فكان أشهر من أن يذكر وكان من ذوي الفصاحة والمشهورين باللسن والبلاغة وكان أبوه قد ضمه إلى أبي يوسف يعقوب القاضي حتى علمه وفقهه وكان الرشيد يأنس به أكثر من أنسه بأخيه الفضل لسهولة أخلاق جعفر وشراسة أخلاق الفضل. وقال الرشيد يوماً ليحيى: ما بال الناس يسمون الفضل الوزير الصغير ولا يسمون جعفراً بذلك فقال يحيى: لأن الفضل يخلفني قال: فضم إلى جعفر أعمالاً كأعمال الفضل، فقال يحيى: إن خدمتك ومنادمتك يشغلانه عن ذلك فجعل إليه أمر دار الرشيد، فسمي بالوزير الصغير، وقال له يوماً: قد أحببت أن أنقل ديوان الخاتم من الفضل إلى جعفر وقد استحييت من مكاتبته في هذا المعنى، فاكتب أنت إليه فكتب يحيى إلى الفضل: قد أمر أمير المؤمنين أعلى اللّه أمره أن نحول الخاتم من يمينك إلى شمالك فأجابه الفضل: قد سمعت ما أمر به أمير المؤمنين في

أخي وما انتقلت عني نعمة صارت إليه ولا غربت عني رتبة طلعت عليه فقال جعفر: للّه در أخي ما أكيس نفسه وأظهر دلائل الفضل عليه وأقوى منة العقل وأوسع في البلاغة ذرعه.

وفي (سنة ١٧٦) ولاه الرشيد مصر زيادة على ماله من الأعمال في دار السلام فولاها من قبله عمر بن مهران.

وفي (سنة ١٨٠) هاجت العصبية بالشام بين أهلها وتفاقم أمرها فاغتم الرشيد لذلك فعقد لجعفر بن يحيى على الشام وقال له: إما أن تخرج أنت أو أخرج أنا فقال له جعفر: بل أقيك بنفسي فشخص في جملة القواد والكراع والسلاح فأصلح بين الناس وقتل زواقيلهم والمتلصصة منهم ولم يدع بها رمحاً ولا فرساً فعادوا إلى الأمن والطمأنينة وأطفأ تلك الثائرة وقد مدحه شعراء العصر بسبب ذلك فقال منصور النميري:

لقد أوقدت بالشام نيران فتنة ... فهذا أوان الشام تخمد نارها
إذا جاش موج البحر من آل برمك ... عليها خبت شهبانها وشرارها
رماها أمير المؤمنين بجعفر ... وفيه تلافي صدعها وانجبارها
رماها بميمون النقيبة ماجد ... تراضى به قحطانها ونزارها
تدلت عليهم صخرة برمكية ... دموع لهام الناكثين انحدارها
غدوت تزجى غاية في رؤوسها ... نجوم الثريا والمنايا ثمارها
إذا خفقت راياتها وتجرست ... بها الريح هال السامعين انبهارها
فقولوا لأهل الشام لا يسلبنكم ... حجاكم طويلات المنى وقصارها
فإن أمير المؤمنين بنفسه ... أتاكم وإلا نفسه فخيارها
هو الملك المأمول للبر والتقى ... وصولاته لا يستطاع خطارها
وزير أمير المؤمنين وسيفه ... وصعدته والحرب تدمى شفارها
ومن تطوى أسرار الخليفة دونه ... فعندك مأواها وأنت قرارها
وفيت فلم تغدر لقوم بذمة ... ولم تدن من حال ينالك عارها
طبيب بإحياء الأمور إذا التوت ... من الدهر أعناق فأنت جبارها
إذا ما ابن يحيى جعفر قصدت له ... ملمات خطب لم ترعه كبارها
لقد نشأت بالشام منك غمامة ... يؤمل جدواها ويخشى دمارها
فطوبى لأهل الشام يا ويل أمها ... أتاها حياها أو أتاها بوارها
فإن سالموا كانت غمامة نائل ... وغيث وإلا فالدماء قطارها
أبوك أبو الأملاك يحيى بن خالد ... أخو الجود والنعمى الكبار صغارها

كأين ترى في البرمكيين من ندى ... ومن سابقات ما يشق غبارها
غدا من نجوم السعد من حل رحله ... إليك وعزت عصبة أنت جارها
عذيري من الأقدار هل عزماتها ... مخلفتي عن جعفر واقتسارها
فعين الأسى مطروقة لفراقه ... ونفسي إليه ما ينام ادكارها

ولما شخص جعفر من هذه المهمة ازداد الرشيد له إكراماً وخطب جعفر أمامه خطبة جميلة استشفع فيها لأهل الشام واستعطف قلب الرشيد عليهم.

وفي هذه السنة ولاه الرشيد خراسان ثم عزله منها بعد عشرين ليلة وولاه الحرس وكان يخلفه في هذا العمل هرثمة بن أعين وهو من كبار قواد الدولة.

وفي (سنة ١٨٢) بايع الرشيد لابنه عبد اللّه المأمون بولاية العهد بعد أخيه محمد الأمين وضمه إلى جعفر بن يحيى ليكون المدبر لأمره، كما كان الأمين مع الفضل بن يحيى وقد جعل الرشيد الأمين والي المغرب كله والمأمون والي المشرق كله وكانت الولاة التي ترسل إلى الأقاليم من قبل ولي العهد.

وأما موسى بن يحيى، فكان أشجع القوم وأشدهم بأساً لم ينل من الشهرة ما ناله أخواه الفضل وجعفر إلا أنه كان في تلك الدولة عاملاً سرياً وقائداً باسلاً ولاه الرشيد الشام (سنة ١٨٦) لما هاجت بها الفتن والعصيان قبل الحادثة التي ذهب فيها أخوه جعفر وضم إليه من القواد والأجناد ومشايخ الكتاب جماعة، فلما ورد الشام أقام بها حتى أصلح بين أهلها وسكنت الفتنة واستقام أمرها فانتهى الخبر إلى الرشيد بمدينة السلام ورد الرشيد الحكم فيهم إلى يحيى بن خالد فعفا عنهم وعما كان بينهم وأقدمهم بغداد. فقيل في موسى بن يحيى:

قد هاجت الشام هيجاً ... يشيب رأس وليده
فصب موسى عليها ... بخيله وجنوده
فدانت الشام لما ... أتى بسنخ وحيده
هو الجواد الذي بذ ... كل جود بجوده
أعداه جود أبيه ... يحيى وجود جدوده
فجاء موسى بن يحيى ... بطارفٍ وتليده
ونال موسى ذرى المجد ... وهو حشو مهوده
خصصته بمديحي ... منثوره وقصيده
من البرامك عود ... له فأكرم بعوده
حووا على الشعر طراً ... خفيفه ومديده

وقد اتهمه علي بن عيسى بن ماهان أمير خراسان من قبل الرشيد بأنه هو السبب في اضطراب خراسان عليه وأعلمه طاعة أهلها لموسى ومحبتهم إياه وأنه يكاتبهم ويعمل على الانسلال إليهم للوثوب به معهم فوقر ذلك في نفس الرشيد عليه وأوحشه منه، فلما قدح علي بن عيسى فيه أسرع ذلك في الرشيد وعمل فيه القليل منه ثم ركب موسى دين واختفى من غرمائه فتوهم الرشيد أنه صار إلى خراسان كما قيل له، فلما صار إلى الحيرة في حجه (سنة ١٨٧) وافاه موسى من بغداد فحبسه الرشيد بالكوفة عند العباس بن عيسى بن موسى فركبت أم الفضل بن يحيى في أمره ولم يكن الرشيد يردها في شيء فقال: يضمنه أبوه فقد رفع إلي فيه فضمنه يحيى ودفعه إليه ثم رضي عنه الرشيد وخلع عليه.

وأما محمد بن يحيى، فكان سرياً بعيد الهمة ولم يكن له من الشهرة ما لإخوته كانت هذه الأسرة في عهد الرشيد غرة في جبين دولته جمعوا من الصفات المحمودة ما استحقوا به ثناء معاصريهم من الكتاب والشعراء والقصاد، وقد كانوا فرسان البلاغة وملوك الكلام، كما كانوا مبرزين في حلبة الجود والسخاء تهزهم الأريحية عند سماع المديح فيجودون بما ضن به الكرام حتى أنسوا الناس ذكر الأولين.

خدمت هذه الأسرة الدولة العباسية من أول نشأتها حيث كان خالد بن برمك من كبار دعاتها وقوادها إلى هذه السنة (سنة ١٨٧) التي نسطر فيها أخبار نكبتها على يد الرشيد.

نكبة البرامكة:

أولع المؤرخون بذكر نكبة البرامكة وأجهدوا قرائحهم في تعرف أسباب إيقاع الرشيد بهم. لم يكن هذا العمل بدعاً في الدولة العباسية فإن للمنصور والمهدي سلفاً في ذلك، فقد أوقع المنصور بوزيره أبي أيوب المورياني قتله وأقاربه واستصفى أموالهم لخيانة مالية اطلع عليها منهم وأوقع المهدي بوزيريه أبي عبد الله معاوية بن يسار ويعقوب بن داود لوشاية كانت بهما مع نزاهة الأول وحسن سيرته ومع ما كان للمهدي من الولوع بالثاني حتى كتب للجمهور أنه اتخذ أخاه في الله. كل هذا قد سبق به الرشيد.

يرى المؤرخ أن طبيعة الملك الاستبداد أي يحب الملك فيه أن يكون ذا السلطان الذي لا يشارك والحول الذي لا يقاوم واليد الطولى التي لا تضارعها يد وكبار الرجال الذين يعينونهم ويقومون بتأييد سلطانهم كثير منهم لا يقف عند حد في الانتفاع بتلك السابقة لهم، فلا يزالون يرتفعون حتى تتنبه إليهم أفكار الخلفاء بما يلقيه إليهم الحاسدون والواشون من تعظيم سلطانهم على سلطانه واشتداد وطأتهم وعلو أيديهم فتدخل الغيرة في قلوب أولئك الخلفاء والغيرة بدء

الشعور بعيوب أولئك الرجال فلا تزال معايبهم تتجسم وهفواتهم الصغيرة تعظم وحينئذٍ يرى هذا السلطان المستبد أن لا مناص من الإيقاع بمن كان سيفه الذي لا ينبو في الخطوب إشفاقاً من هذا السيف أن ينقلب عليه فينتقص منه ملكه الذي دونه كل شيء وليس هذا خاصاً بالرشيد والبرامكة بل كل مستبد هذا شأنه مع وزرائه وأعوانه إلا قليلاً من الوزراء الذين يعلمون طباع الملك فيقفون عند حد لا يهيج الغيرة والحسد في قلوب الناس وقلب السلطان وهؤلاء أندر من الكبريت الأحمر، لأنهم يتغلبون على ما في طبع الإنسان من عدم الوقوف عند حد في العظمة والتكاثر في الأموال على أن أبا عبد الله وزير المهدي مع نزاهته وبعده عما يوجب غيرة سلطانه جاءه أعداؤه من قبل ابنه فقالوا للمهدي: إنه زنديق فقتله المهدي فكان ذلك سبباً للوحشة بين المهدي ووزيره.

كان يحيى بن خالد هو القائم بأمر الرشيد أيام المهدي وكان الرشيد يدعوه يا أبي، وكانت أم الفضل بن يحيى ظئراً للرشيد وأرضعت الخيزران أم الرشيد الفضل بن يحيى، فكان يحيى هو الذي يكفله ويقوم بتربيته من لدن ولد إلى أن شب. وهو الذي كانت له اليد الطولى في إخفاق المساعي التي بذلت لخلع الرشيد من ولاية العهد أيام الهادي، فلما تولى الرشيد قلده وزارته وزارة تفويض ثم ضم إليه وزارة الخاتم بعد وفاة الفضل بن سليمان الطوسي فاجتمعت له الوزارتان وأعانه في العمل أبناؤه إلا أن الشهرة ونباهة الذكر كانت للفضل وجعفر مع ما كان لهم جميعاً من الكفاية حتى روى القاضي يحيى بن أكثم قال: سمعت المأمون يقول: لم يكن كيحيى بن خالد وولده أحد في الكفاية والبلاغة والجود والشجاعة قال القاضي: فقلت: يا أمير المؤمنين، أما الكفاية والبلاغة والسماحة فنعرفها فيهم ففيمن الشجاعة؟ فقال موسى بن يحيى: وقد رأيت أن أوليه ثغر السند.

ولم يكونوا في الاتصال بالرشيد على درجة واحدة، فكان يحيى صاحب المقام الأرفع وهو المدبر أمر المملكة وحاله في سنه وجلالة قدره تبعده عما يدعو إليه الشباب من المنادمة وكان الفضل في الأخلاق مثله فلم يكن يخف على قلب الرشيد لتشبهه بأبيه حتى كان الرشيد قد عتب عليه وثقل مكانه عليه لتركه الشراب معه، فكان الفضل يقول: لو علمت أن الماء ينقص من مروءتي ما شربته وكان مشغوفاً بالسماع. أما جعفر فكان أخف الجميع على قلب الرشيد، فكان لذلك يدخل في منادمته حتى كان أبوه ينهاه ويأمره بترك الأنس به فيترك أمر أبيه ويدخل معه فيما يدعو إليه ويقال إنه كتب إليه حين أعيته الحيلة فيه: إني إنما أهملتك ليعثر الزمان بك عثرة تعرف بها أمرك وإن كنت لأخشى أن تكون التي لا سوى لها. وقد كان يحيى قال للرشيد: يا أمير المؤمنين أنا والله أكره مداخلة جعفر معك ولست آمن أن ترجع العاقبة في ذلك علي منك، فلو أعفيته واقتصرت به على ما يتولاه من جسيم أعمالك كان ذلك واقعاً بموافقتي وأمن لك علي. قال

الرشيد: يا أبت ليس بك هذا ولكنك إنما تريد أن تقدم عليه الفضل. ومن أجل ذلك كان سلطان جعفر أيام الرشيد عظيماً جداً حتى كان يقضي أعظم الأمور فلا يرد له الرشيد قضاء.

رآهم الناس بعد هذا العز المتين والشرف الباذخ منكوبين على يد الرشيد، ابن يحيى وأخي الفضل وحبيب جعفر. فجعفر مقتول بالعمر من ناحية الأنبار في آخر ليلة من محرم (سنة ١٩٧) بعد أوبة الرشيد من حجه وكتابته عهدي ولديه الأمين والمأمون ـ ثم جسمه مصلوب ببغداد على ثلاثة جسور ثم أحرق. ويحيى بن خالد وأبناؤه الباقون محبوسون. ورأوا مصادرة لكل ما يملكون من عقار ومنقول ورقيق ـ ورأوا كتباً أرسلت إلى جميع العمال في نواحي البلدان والأعمال بقبض أموالهم وأخذ وكلائهم وأمراً بالنداء في جميع البرامكة أن لا أمان لمن أواهم إلا محمد بن خالد بن برمك وولده وأهله وحشمه، فإن الرشيد استثناهم لما ظهر له من نصيحة محمد له وعرف براءته مما دخل فيه غيره من البرامكة. رأوا ذلك كله فعرتهم الدهشة وظنوا الظنون وسادت عليهم الخيالات والأوهام ناسبين ذلك لحادث فجائي حدث فغير قلب الرشيد هذا التغيير، وأداه إلى هذا العمل شأن الناس في الأعصار كافة إذا عصفت بهم عاصفة من حادث شديد الوقع.

نسب ذلك بعضهم إلى مجرد الملل والغيرة. وسئل سعيد بن سالم عن جناية البرامكة الموجبة لغضب الرشيد عليهم فقال: واللّه ما كان منهم ما يوجب بعض عمل الرشيد لهم، ولكن طالت أيامهم وكل طويل مملول، واللّه لقد استطال الناس الذين هم خير الناس أيام عمر بن الخطاب رضي اللّه عنه وما رأوا مثلها عدلاً وأمناً وسعة أموال وفتوح وأيام عثمان رضي اللّه عنه حتى قتلوهم، ورأى الرشيد مع ذلك أنس النعمة بهم وكثرة حمد الناس لهم ورميهم بآمالهم دونه والملوك تتنفس بأقل من ذلك فتعنت عليهم وتجنى وطلب مساويهم ووقع منهم بعض الإدلال خاصة الفضل وجعفر دون يحيى فإنه كان أحكم خبرة وأكثر ممارسة للأمور ولاذ من أعدائهم بالرشيد كالفضل بن الربيع وغيره فستروا المحاسن وأظهروا القبائح حتى كان ما كان.

ونسب ذلك بعضهم إلى حادثة يحيى بن عبد اللّه بن الحسن الذي روينا حديث ذهابه إلى بلاد الديلم واستنزال الفضل بن يحيى إياه بأمان الرشيد ـ ذكر أبو محمد اليزيدي وكان فيما قيل من أعلم الناس بأخبار القوم قال: من قال إن الرشيد قتل جعفر بن يحيى بغير سبب يحيى بن عبد اللّه بن الحسن فلا تصدقه، وذلك أن الرشيد دفع يحيى إلى جعفر فحبسه ثم دعا به ليلة من الليالي فسأله عن شيء من أمره فأجابه إلى أن قال: اتق اللّه في أمري ولا تتعرض أن يكون خصمك غداً محمداً ﷺ فواللّه ما أحدثت حدثاً ولا آويت محدثاً فرق عليه وقال: اذهب حيث شئت من بلاد اللّه. قال: وكيف أذهب ولا آمن أن أوجد بعد قليل فأرد إليك أو إلى غيرك فوجه

معه من أداه إلى مأمنه وبلغ الخبر الفضل بن الربيع من عين كانت له عليه من خاصة خدمه، فعلم الأمر فوجده حقاً وانكشف عنده فدخل على الرشيد فأخبره فأراه أنه لا يعبأ بخبره وقال: ما أنت وهذا لا أم لك، فلعل ذلك عن أمري فانكسر الفضل وجاء جعفر فدعا بالغداء فأكلا وجعل يلقمه ويحادثه إلى أن كان آخر ما دار بينهما أن قال: ما فعل يحيى بن عبد اللّه قال: بحاله يا أمير المؤمنين في الحبس الضيق والأكبال. قال: بحياتي. فأحجم جعفر وكان من أدق الخلق ذهناً وأصحهم فكراً، فهجس في نفسه أنه قد علم بشيءٍ من أمره، فقال: لا وحياتك يا سيدي ولكن أطلقته وعلمت أنه لا حياة به ولا مكروه عنده قال: نعماً فعلت، ما عدوت ما كان في نفسي فلما خرج أتبعه بصره حتى كاد يتوارى عن وجهه ثم قال: قتلني اللّه بسيف الهدى على عمل الضلالة إن لم أقتلك فكان من أمره ما كان.

ونسب ذلك بعضهم إلى حديث العباسة بنت المهدي التي رواها الطبري عن زاهر بن حرب وتناقلها المؤرخون وزادوا عليه ونقصوا منها وهي حكاية مشهورة ونحن نريد أن نبين أن نكبة البرامكة ليست حادثة فجائية بل هي حادثة تقدمتها أسباب طويلة أنتج بعضها بعضاً.

كان من موالي العباسيين الفضل بن الربيع وقد قدمنا ذكر أبيه الربيع بن يونس في حياة المنصور والمهدي، ولم يكن للفضل في أول خلافة الرشيد شيء من نباهة الذكر، لأن الخيزران أم الرشيد كانت تمنعه أن يوليه شيئاً، ففي اليوم الذي توفيت فيه (سنة ١٧٤) دعا به هارون، فقال له: وحق المهدي إني لأهم لك بالليل بالشيء من التولية وغيرها فتمنعني أمي فأطيع أمرها فخذ الخاتم من جعفر وكان بيده نيابة عن والده فقال الفضل بن الربيع لإسماعيل بن صبيح الكاتب: أنا أجل أبا الفضل عن ذلك بأن أكتب إليه وآخذه ولكن أرى أن يبعث به. وهذه مجاملة سببها أن الفضل يريد منافسة القوم وهم الذين بيدهم كل شيء فأحب أن يتخذ عندهم يداً حتى لا يتخوفونه وولى الفضل بن الربيع الخاتم مع نفقات العامة والخاصة وولايات أخرى.

في (سنة ١٧٦) حصلت حادثة يحيى بن عبد اللّه فاستنزله الفضل من معقله بأمان الرشيد فحضر إلى بغداد وأكرمه الرشيد، لكن الزمان لم يطل على هذا الإكرام، فإن السعاة رفعوا عن يحيى ما يريب وكان الرشيد يرتاب بأقل شيءٍ فرفع إليه أن يحيى لا يزال يدعو إلى نفسه وإنما ينتظر الفرص وكان أكثر الناس سعايةً في ذلك بكار بن عبد اللّه الزبيري وكان شديد البغض لآل أبي طالب، ويبلغ عنهم هارون ويسيء بأخبارهم فكان من وراء تلك السعايات أن حبسه الرشيد وضيق عليه وحاول أن يقتله ولم يكن يمنعه إلا خيفة أن يقول الناس فيه شيئاً لما كتبه من كتاب الأمان الذي استنزل به يحيى فأراد أن يأخذ من العلماء قولاً في أن ذلك الأمان لاغ فأحضر أبا البختري القاضي ومحمد بن الحسن الفقيه صاحب أبي يوسف، فأما محمد بن الحسن فإنه

قال له: ما تصنع بالأمان لو كان محارباً ثم ولى كان آمناً وليس هذا الجواب موافقاً لغرض الرشيد ولذلك احتمل هذه الكلمة على محمد ـ وأما أبو البختري فقال: إن الأمان منتقض وأقبل يعدد وجوه نقضه، ولذلك قال له الرشيد: أنت قاضي القضاة وأنت أعلم بذلك فخرق الأمان.

ويظهر أن الفضل بن الربيع كان يحرك هؤلاء السعاة ليسعى بيحيى بن عبد اللّه عند الرشيد، لأن في قتله إذلالاً لمن كان السبب في استنزاله وكان الربيع يحاول أن ينال مركز البرامكة أو يساميهم لما كان يرى من وفرة أموالهم وقوة سلطانهم والذي أوضح لنا أن الفضل بن الربيع هو الذي كان يحرك السعاة للسعي بيحيى أن الرشيد لما كان يحاج يحيى نظر يحيى إلى الفضل بن الربيع وقال له: هذا واللّه من آفاتك.

كان المفهوم بعد ذاك أن يجتهد البرامكة في تخليص يحيى ففعل جعفر فعلته التي قدمنا ذكرها والرشيد وإن كان يحتمل لجعفر كثيراً من الإدلال لا يحتمل له هذا، لأنه متعلق بملكه ـ ومن الغريب ما ورد في هذه الحادثة من أن الفضل بن الربيع علم بما فعله جعفر من عين كانت له عليه من خاصة خدمه وهذا يبين كيف كان الفضل بن الربيع يترقب أحوال جعفر حتى اختار من خاصة خدمه جاسوساً يعلم أخباره ويلقي بها إليه كانت هذه الحادثة سبباً للوشاية بالبرامكة في أخص صفات الوزراء وهي الإخلاص لملوكهم وذلك طعن منفذ. وقر في نفس الرشيد شيء من ذلك وأن البرامكة يؤثرون مصلحة العلويين على مصلحته وهذه التهمة أشد من تهمة الزندقة عند المهدي وهي التهمة التي استعملها الربيع بن يونس والد الفضل ضد أبي عبيد اللّه وزير المهدي حتى جعله يقتل ابنه بتلك التهمة.

كان من الظاهر بعد ذلك أن تتجسم عيوبهم وتظهر للرشيد مثاليهم وأثرتهم وينفس عليهم ما صار إليه من عظيم الأموال وجلائل المدح وظهرت على الرشيد آثار النفرة منهم واستراب بهم وظن كل منهم في الآخر الظنون. روى بختيشوع الطبيب عن أبيه جبريل قال: إني لقاعد في مجلس الرشيد إذ طلع يحيى بن خالد وكان فيما مضى يدخل بلا إذن، فلما دخل وصار بالقرب من الرشيد وسلم رد عليه رداً ضعيفاً فعلم يحيى أن أمرهم قد تغير ثم أقبل الرشيد على جبريل فقال: يا جبريل يدخل عليك وأنت في منزلك أحد بلا إذنك؟ فقلت: لا، ولا يطمع في ذلك، قال: فما بالنا يدخل علينا بلا إذن؟ فقام يحيى فقال: يا أمير المؤمنين قدمني اللّه قبلك واللّه ما ابتدأت ذلك الساعة وما هو إلا شيء كان خصني به أمير المؤمنين ورفع به ذكري حتى إن كنت لأدخل عليه وهو في فراشه مجرداً حيناً وحيناً في بعض إزاره وما علمت أن أمير المؤمنين كره ما كان يحب، وإذ قد علمت فإني أكون عنده في الطبقة الثانية من أهل الإذن أو الثالثة إن أمرني سيدي بذلك، قال: فاستحيا الرشيد وكان من أرق الخلفاء وجهاً وعيناه في الأرض ما يرفع إليه

طرفه ثم قال: ما أردت ما تكره، ولكن الناس يقولون: قال جبريل: فظننت أنه لم يسنح له جواب يرتضيه فأجاب بهذا القول ثم أمسك عنه وخرج يحيى.

وحدث محمد بن الفضل مولى سليمان بن أبي جعفر قال: دخل يحيى بن خالد على الرشيد فقام الغلمان إليه فقال الرشيد لمسرور الخادم: مر الغلمان ألا يقوموا ليحيى إذا دخل الدار قال: فدخل فلم يقم إليه أحد فاربد لونه قال: وكان الغلمان والحجاب إذا رأوه أعرضوا عنه قال: فكان ربما استسقى الشربة من الماء أو غيره فلا يسقونه وبالحري إن سقوه أن يكون ذلك بعد أن يدعو بها مراراً.

وحدث يعقوب بن إسحاق عن إبراهيم بن المهدي قال: أتيت جعفر بن يحيى في داره التي ابتناها فقال: أما تعجب من منصور بن زياد قال: قلت له: في ماذا؟ قال: سألته: هل ترى في داري عيباً؟ قال: نعم، ليس فيها لبنة ولا صنوبرة، قال إبراهيم: فقلت له: الذي يعيبها عندي أنك أنفقت عليها نحواً من عشرين ألف ألف درهم وهو شيء لا آمنه عليك غداً بين يدي أمير المؤمنين. قال: هو يعلم أنه قد وصلني بأكثر من ذلك وضعف ذلك سوى ما عرضني له قال: قلت: إن العدو إنما يأتيه في هذا من جهة أن يقول له: يا أمير المؤمنين إذا أنفق على دار عشرين ألف ألف درهم فأين نفقاته وأين صلاته وأين النوائب التي تنوبه؟ وما ظنك يا أمير المؤمنين بما وراء ذلك؟ وهذه جملة سريعة إلى القلب والوقف على الحاصل منها صعب. قال: إن سمع مني قلت لأمير المؤمنين: نعماً على قوم قد كفروها بالستر أو بإظهار القليل من كثيرها وأنا رجل نظرت إلى نعمته عندي فوضعتها في رأس جبل، ثم قلت للناس: تعالوا فانظروا. وحدث زيد بن علي عن إبراهيم بن المهدي أن جعفر بن يحيى قال له يوماً: (وكان جعفر صاحبه عند الرشيد وهو الذي قربه منه) إني قد استربت بأمر هذا الرجل (يعني الرشيد) وقد ظننت أن ذلك لسابق سبق لي منه فأردت أن أعتبر ذلك بغيري فكنت أنت فارمق ذلك في يومك هذا وأعلمني ما ترى منه قال إبراهيم: ففعلت ذلك في يومي.

فلما نهض الرشيد من مجلسه كنت أول أصحابه نهض عنه حتى صرت إلى شجرة في طريقي فدخلتها ومن معي وأمرتهم بإطفاء الشمع وأقبل الندماء يمرون بي واحداً بعد واحد فأراهم ولا يروني حتى إذا لم يبق منهم أحد إذا أنا بجعفر قد طلع، فلما جاوز الشجرة قال: اخرج يا حبيبي قال: فخرجت فقال: ما عندك؟ فقلت: حتى تعلمني كيف علمت أني هٰهنا؟ قال: عرفت عنايتك بما أعنى به، وأنك لم تكن لتنصرف أو تعلمني ما رأيت منه وعلمت أنك تكره أن ترى واقفاً في مثل هذا الوقت وليس في طريقك موضع أستر من هذا الموضع فقضيت بأنك فيه ثم

قال: فهات ما عندك قلت: رأيت الرجل يهزل إذا جددت ويجد إذا هزلت قال: كذا هو عندي فانصرف يا حبيبي.

من كل هذا يتبين أن النفور والريبة وقعت في قلب كل من الطرفين للآخر وتبع ذلك معاملات من الرشيد لم يكن يبعثه عليها إلا ما ركز في نفسه وأثبته عنده وشاة السوء وأعداء البرامكة وكان الرشيد يتحين الفرصة للإيقاع بهم ولا سيما جعفر لما كان منه من تخليص يحيى بن عبد اللّه وهذا دليل عدم الإخلاص للرشيد وللبيت العباسي وقد قام الفضل بن الربيع بما انتدب إليه خير قيام وشايعه في ذلك كثيرون وكانت زوجة الرشيد زبيدة منحرفة عن جعفر لقيامه في أمر المأمون، فإنه هو الذي قام في ولايته العهد وجعله مناظراً لابنها الأمين وكانوا يتخوفون من جعفر أن يكون سبباً في الإيقاع بين الأخوين إذا حانت منية الرشيد لذلك كانت زبيدة توغر قلب الرشيد على جعفر كلما حانت الفرصة.

في (سنة ١٨٦) حج الرشيد، ولما انصرف من حجه أتى الأنبار ومعه يحيى والفضل وجعفر ومحمد بن خالد ودعا موسى بن يحيى فرضي عنه بعد غضبه عليه وفي غاية المحرم أمر فيهم أمره فقتل جعفراً وحبس يحيى وابنيه وصادر أموالهم كلها وقد حبس يحيى مع الفضل ومحمد في دير القائم وجعل عليهم حفظة ولم يفرق بينهم وبين عدة من خدمهم ولا ما يحتاجون إليه وصير معهم زبيدة بنت منير أم الفضل وعدة من خدمهم وجواريهم ولم تزل حالهم سهلة إلى أن سخط الرشيد على عبد الملك بن صالح فعمهم بالتسقف بسخطه وجدد لهم التهمة عند الرشيد فضيق عليهم.

حادثة عبد الملك بن صالح:

هو عبد الملك بن صالح بن علي بن عبد اللّه بن عباس وهو في درجة السفاح والمنصور نسباً. رفع إلى الرشيد أنه يطلب الخلافة ويطمع فيها وأن البرامكة كانوا له عوناً والذي سعى به ابنه عبد الرحمٰن وخادمه قمامة فأحضر إلى الرشيد، فلما دخل عليه قال: أكفراً بالنعمة وجحوداً لجليل المنة والتكرمة؟ فقال: يا أمير المؤمنين: لقد بؤت إذاً بالندم وتعرضت لاستحلال النقم وما ذاك إلا بغي حاسد نافسني فيك مودة القرابة وتقديم الولاية إنك يا أمير المؤمنين خليفة رسول اللّه ﷺ في أمته وأمينه على عترته لك عليها فرض الطاعة وأداء النصيحة ولها عليك العدل في حكمها والتثبت في حادثها والغفران لذنوبها. فقال له الرشيد: أتضع لي من لسانك وترفع لي من جنابك هذا كاتبك قمامة يخبر بغلك وفساد نيتك فاسمع كلامه. فقال عبد الملك: أعطاك ما ليس في عقده ولعله لا يقدر أن يعضهني ولا يبهتني بما لم يعرفه مني وأحضر قمامة فقال له الرشيد: تقدم غير هائب ولا خائف قال: أقول إنه عازم على الغدر بك والخلاف عليك، فقال

عبد الملك: أهو كذلك يا قمامة؟ قال: نعم لقد أردت ختل أمير المؤمنين ـ فقال عبد الملك: كيف لا يكذب علي من خلفي وهو يبهتني في وجهي ـ فقال له الرشيد: وهذا ابنك عبد الرحمٰن يخبرني بعتوك وفساد نيتك ولو أردت أن أحتج عليك بحجة لم أجد أعدل من هذين لك فبم تدفعهما عنك؟ فقال عبد الملك: هو مأمور أو عاق مجبور فإن كان مأموراً فمعذور وإن كان عاقاً ففاجر كفور أخبر اللَّه عز وجل بعداوته وحذر منه بقوله: ﴿**إن من أزواجكم وأولادكم عدواً لكم فاحذروهم**﴾(١) قال: فنهض الرشيد وهو يقول: أما أمرك فقد وضح ولكني لا أعجل حتى أعلم الذي يرضي اللَّه فيك، فإنه الحكم بيني وبينك ـ فقال عبد الملك: رضيت باللَّه حكماً وبأمر أمير المؤمنين حاكماً فإني أعلم أنه يؤثر كتاب اللَّه على هواه وأمر اللَّه على رضاه.

فلما كان بعد ذلك جلس مجلساً آخر فسلم عبد الملك لما دخل فلم يرد عليه الرشيد فقال عبد الملك: ليس هذا يوماً أحتج فيه ولا أجاذب منازعاً فقال الرشيد: لمه؟ قال: لأن أوله جرى على غير السنّة فأنا أخاف آخره قال: وما ذاك؟ قال: لم ترد علي السلام نصف نصفة العوام فقال الرشيد: السلام عليكم اقتداء بالسنّة وإيثاراً للعدل واستعمالاً للتحية. ثم التفت نحو سليمان بن أبي جعفر وقال:

أريد حياته ويريد قتلي ـ أما واللَّه لكأني أنظر إلى شؤبوبها قد همع وعارضها قد لمع، وكأني بالوعيد قد أوري ناراً تسطع فأقلع عن براجم بلا معاصم ورؤوس بلا غلاصم فمهلاً مهلاً بي واللَّه سهل لكم الوعر وصفا لكم الكدر وألقت إليكم الأمور أثناء أزمتها فنذار لكم نذار قبل حلول داهية خبوط باليد لبوط بالرجل فقال عبد الملك: اتق اللَّه يا أمير المؤمنين فيما ولاك وفي رعيتك التي استرعاك ولا تجعل الكفر مكان الشكر ولا العقاب موضع الثواب فقد نخلت لك النصيحة ومحضت لك الطاعة وشددت أواخي ملكك بأثقل من ركني يلملم وتركت عدوك مشتغلاً فاللَّه اللَّه في ذي رحمك أن تقطعه بعد أن بللته بظن أفصح الكتاب لي بعضه أو يبغي باغ ينهش ويلغ في الدم، فقد واللَّه سهلت لك الوعور وذللت لك الأمور وجمعت على طاعتك القلوب في الصدور فكم من ليل تمام فيك كابدته ومقام ضيق لك قمته كما قال أخو بني جعفر بن كلاب:

ومقام ضيق فرجته ... ببنانٍ ولسانٍ وجدل

لو يقوم الفيل أو فياله ... زل عن مثل مقامي وزحل

فقال له الرشيد: أما واللَّه لولا الإبقاء على بني هاشم لضربت عنقك ثم أمر بحبسه فحبس عند الفضل بن الربيع وبعث إلى يحيى بن خالد وهو في السجن: إن عبد الملك بن صالح أراد الخروج علي ومنازعتي في الملك وقد علمت ذلك فأعلمني ما عندك فيه فإنك إن صدقتني أعدتك

(١) سورة: التغابن، الآية: ١٤.

إلى حالك فقال: والله يا أمير المؤمنين ما اطلعت من عبد الملك على شيء من هذا ولو اطلعت عليه لكنت صاحبه دونك، لأن ملكك كان ملكي وسلطانك كان سلطاني والخير والشر كان فيه علي ولي، فكيف يجوز لعبد الملك أن يطمع في ذلك مني وهل كنت إذا فعلت ذلك به يفعل بي أكثر من فعلك، أعيذك بالله أن تظن بي هذا الظن ولكن كان رجلاً محتملاً يسرني أن يكون في أهلك مثله فوليته لما أحمدت من مذهبه وملت إليه لأدبه واحتماله. فلما أتاه الرسول بهذا أعاد عليه فقال: إن أنت لم تقر عليه قتلت ابنك الفضل فقال له: أنت مسلط علينا فافعل ما شئت على أنه إن كان من هذا الأمر شيء فالذنب فيه لي فبم يدخل الفضل في ذلك؟ فقال الرسول للفضل: قم فإنه لا بد لي من إنفاذ أمر أمير المؤمنين فيك، فلم يشك أنه قاتله فودع أباه وقال له: ألست راضياً عني قال: بلى فرضي الله عنك ففرق بينهما ثلاثة أيام، فلما لم يجد عندهما من ذلك شيئاً جمعهما كما كانا وكان يأتيهم من أغلظ رسائل لما كان أعداؤهم يقرفونهم به عنده.

سقنا هذا لندل على أن التهم التي وجهت إلى البرامكة كافة ولا سيما جعفر سياسية محضة وفي القليل منها ما يكفي عند الرشيد لتغيير نعمتهم والغضب عليهم وإذا أضيف إلى ذلك غيرة السلطان ممن يساميه في سلطانه ويشاركه في نفوذ أمره كان ذلك أشد لغضبه ولا حاجة بعد ذلك لحيرة الجمهور حتى تخترع له تلك الحكاية التي يظهر عليها أثر التوليد والاختراع لمخالفتها لأخلاق الرشيد وللتقاليد التي سار عليها بنو العباس فقد كان مما عده المنصور على أبي مسلم من ذنوبه وهو من هو في الدولة وتشييد بنيانها أنه كتب إليه يخطب أمينة بنت علي بن عبد الله بن عباس ولم يتنازل بنو العباس عن تلك التقاليد في أوقات ضعفهم وتسلط آل سلجوق عليهم فكيف يظن بمثل الرشيد أن يقدم على زواج سري كهذا سببه خسيس؟ هذا بعيد جداً.

فيما تتبعناه من أحوال الرشيد كفاية فقد كان وصل من خوفه على ملكه وعلى نفسه إلى درجة الوساوس حتى جعله ذلك إذناً يسمع لكل واشٍ ويصدق كل حسود ففقد بذلك زهرة دولته وغرة جبينها بل زهرة الدولة العباسية كلها فقد وزراء إن كتبوا أجادوا وإن قادوا الجيوش سدوا الثغور، وإن ولوا عملاً أصلحوا وهكذا الخليفة ذو السلطان المطلق لا يأمنه خدمه بل تراهم حذرين وجلين فما هي إلا وشاية تطرق حتى تراه قد أخذ بحلاقيمهم فأوردهم شر مورد لا يبالي بما سبق لهم من جليل الخدم ولا يؤثر فيه ما يرى لهم من الفضل بل ينسى ذلك كله ثم يتقدم عنده الوشاة وإن لم يكن لهم في ميدان الصالحين أثر فقد بقي للرشيد الفضل بن الربيع وهو السبب الوحيد فيما وقع من الشقاق والعداوة بين الأمين والمأمون كما سيجيء، لأن الرجل مفسد معتاد على اختلاق الأخبار ويرى ذلك يحسن في آذان الخلفاء فلم يكن يصطبر على ذلك فأفسد الدولة

وأوقع بأس الأمة بينها وإنّا نعوذ باللّه من الخذلان ومن وزراء السوء وبطانة السوء فهم آفة الأمم وسوس عظامها.

تولى وزارة الرشيد بعد البرامكة الفضل بن الربيع، فلم يسد المكان الذي سدوا.

العلاقات الخارجية:

كانت دول هذا العصر الكبيرة دولة الروم الشرقية بالقسطنطينية ودولة شرلمان الذي كان يميل إلى تجديد دولة الرومان الغربية ودولة الأمويين بالأندلس، وحدثت في عهده دوله الأدارسة بالمغرب الأقصى كما سبق.

مع الروم:

من أعمال الرشيد أنه عزل الثغور كلها عن الجزيرة وقنسرين وجعلها حيزاً واحداً وسميت العواصم، وجعل قاعدتها منبجاً وأسكنها عبد الملك بن صالح (سنة ١٧٣) وسميت العواصم، لأن المسلمين كانوا يعتصمون بها فتعصمهم وتمنعهم من العدو إذا انصرفوا من غزوهم وخرجوا من الثغر. وكان من هذه العواصم دلوك ورعبان وقورس وأنطاكية وتيزين وما بين ذلك من الحصون. ومن تلك المدن الشهيرة طرسوس وقد عمرت في زمن الرشيد على يد أبي سليم فرج الخادم التركي، ونزلها الناس وكان يغزو الصائفة عبد الرحمٰن بن عبد الملك بن صالح ووصل (سنة ١٧٥) إلى إقريطية. وفي (سنة ١٨١) غزا الرشيد الصائفة بنفسه ففتح عنوة حصن الصفصاف وغزا عبد الملك بن صالح فبلغ أنقرة.

ولم يزل عبد الملك يرى الثغور وحربها وهو قائم بذلك خير قيام حتى عزله الرشيد وحبسه بعد نكبة البرامكة (سنة ١٨٧) فولي بعده القاسم بن الرشيد وسكن منبجاً فغزا الروم وأناخ على حصن قرة وحاصرها ووجه العباس بن جعفر بن محمد بن الأشعث فأناخ على حصن سنان حتى جهدوا فبعثت الروم تبذل (٣٢٠ رجلاً) من أسارى المسلمين على أن يرحل عنهم فأجابهم إلى ذلك ورحل عن حصني قرة وسنان. كان يملك الروم في ذلك الوقت إريني وكانت في أوائل أمرها تنوب عن ابنها قسطنطين السادس منذ (سنة ٧٨٠)، ثم استبدلت بالملك (سنة ٧٩٠) فاتفقت مع الرشيد على الصلح والمهادنة مقابل جزية تقوم بدفعها له وذلك لما رأته من إلحاح المسلمين عليها بالحرب وعدم قدرتها على الدفاع لوقوعها بين المسلمين من جهة وبين شارلمان من جهة أخرى وكلتا الدولتين تناوئها العداوة، لأن شارلمان كان يريد توسيع سلطانه وإعادة دولة الرومان إلى بهجتها التي كانت لها في القدم، وفي (سنة ٨٠٢) نهضت عليها عصابة رومية فخلعتها عن الملك وملكت مكانها نقفور فعقد معاهدة مع شارلمان عينت فيها تخوم المملكتين ثم كتب إلى الرشيد:

من نقفور ملك الروم إلى هارون ملك العرب، أما بعد: فإن الملكة التي كانت قبلي أقامتك مقام الرخ وأقامت نفسها مكان البيدق فحملت إليك من أموالها ما كنت حقيقاً بحمل أمثاله إليها لكن ذلك ضعف النساء وحمقهن، فإذا قرأت كتابي فاردد ما حصل قبلك من أموالها وافتد نفسك بما يقع به المصادرة لك وإلا فالسيف بيننا وبينك ـ فلما قرأ الرشيد الكتاب استفزه الغضب حتى لم يمكن أحد أن ينظر إليه دون أن يخاطبه وتفرق جلساؤه خوفاً من زيادة قول أو فعل يكون منهم واستعجم الرأي على الوزير من أن يشير عليه أو يستبد برأيه دونه فدعا بدواة وكتب على ظهر الكتاب: (بسم اللّه الرحمٰن الرحيم، من هارون أمير المؤمنين إلى نقفور كلب الروم، قد قرأت كتابك والجواب ما تراه دون أن تسمعه والسلام). ثم شخص من يومه وسار حتى أناخ بباب هرقلة ففتح وغنم واصطفى وأقاد وخرب وحرق واصطلم فطلب نقفور الموادعة على خراج يؤديه كل سنة فأجابه إلى ذلك، فلما رجع من غزوته وصار بالرقة نقض نقفور العهد وخان الميثاق وكان البرد شديداً فيئس نقفور من رجعته إليه وجاء الخبر بارتداده عما أخذ عليه فما تهيأ لأحد إخبار الرشيد بذلك إشفاقاً عليه وعلى أنفسهم من الكرة في مثل تلك الأيام فاحتيل بشاعر يكنّى أبا محمد بن عبد اللّه بن يوسف فقال:

نقض الذي أعطيته نقفور ... وعليه دائرة البوار تدور
أبشر أمير المؤمنين فإنه ... فتح أتاك به الإلٰه كبير
فلقد تباشرت الرعية أن أتى ... بالنقض عنه وافد وبشير
ورجت يمينك أن تعجل غزوة ... تشفي النفوس مكانها مذكور
أعطاك جزيته وطأطأ خده ... حذر الصوارم والردى محذور
فأجرته من وقعها وكأنها ... بأكفنا شعل الضرام تطير
وصرفت بالطول العساكر قافلاً ... عنه وجارك آمن مسرور
نقفور إنك حين تغدر إن نأى ... عنك الإمام لجاهل مغرور
أظننت حين غدرت أنك مفلت ... هبلتك أمك ما ظننت غرور
ألقاك حينك في زواخر بحره ... فطمت عليك من الإمام بحور
إن الإمام على اقتسارك قادر ... قربت ديارك أم نأت بك دور
ليس الإمام وإن غفلنا غافلاً ... عما يسوس بحزمه ويدير
ملك تجرد للجهاد بنفسه ... فعدوه أبداً به مقهور
يا من يريد رضا الإلٰه بسعيه ... واللّه لا يخفى عليه ضمير
لا نصح ينفع من يغش إمامه ... والنصح من نصحائه مشكور

نصح الإمام على الأنام فريضة ولأهلها كفارة وطهور

فلما فرغ الشاعر من إنشاده قال: أو قد فعل نقفور ذلك وعلم أن الوزراء قد احتالوا له في ذلك فكر راجعاً في أشد محنة وأغلظ كلفة حتى أناخ بفنائه فلم يبرح حتى رضي وبلغ ما أراد فقال أبو العتاهية:

ألا نادت هرقلة بالخراد من الملك الموفق بالصواب
غدا هارون يرعد بالمنايا ويرقب بالمذكرة القضاب
ورايات يحل النصر فيها تمر كأنها قطع السحاب
أمير المؤمنين ظفرت فاسلم وأبشر بالغنيمة والإياب

ولم تقف الحروب بين الطرفين بعد ذلك، وفي (سنة ١٨٩) حصل فداء بين المسلمين والروم، فلم يبق بأرض الروم مسلم إلا فُودي به وهذا أول فداء كان بين المسلمين والروم، فقال مروان بن أبي حفصة يمدح الرشيد:

وفكت بك الأسرى التي شيدت لها محابس ما فيها حميم يزورها
على حين أعيا المسلمين فكاكها وقالوا سجون المشركين قبورها

وفي (سنة ١٩٠) غزا الرشيد الصائفة بنفسه ففتح هرقلة وبث الجيوش والسرايا بأرض الروم وكان دخلها في (١٣٥ ألف) مرتزق سوى الأتباع وسوى المطوعة وسوى من لا ديوان له، وكان فتح الرشيد هرقلة في شوال فأضر بها وسبى أهلها بعد مقام ثلاثين يوماً عليها وولّى حميد بن معيوف سواحل الشام إلى مصر فبلغ حميد قبرص فانتصر على أهلها.

ثم سار الرشيد إلى الطوانة فعسكر بها ثم رحل عنها وخلف عليها عقبة بن جعفر وأمره بابتناء منزل هنالك وبعث نقفور إلى الرشيد بالخراج والجزية عن رأسه وولي عهده وبطارقته وسائر أهل بلده خمسين ألف دينار منها عن رأسه أربعة دنانير وعن رأس ابنه استيراق ديناران وكتب مع بطريقين من عظماء بطارقته في جارية من سبي هرقلة كتاباً نسخته ـ لعبد اللّه هارون أمير المؤمنين من نقفور ملك الروم: سلام عليك، أما بعد، أيها الملك إن لي إليك حاجة لا تضرك في دينك ولا دنياك هينة يسيرة أن تهب لابني جارية من بنات أهل هرقلة كنت قد خطبتها على ابني فإن رأيت أن تسعفني بحاجتي فعلت والسلام عليك ورحمة اللّه وبركاته ـ واستهداه أيضاً طيباً وسرادقاً من سرادقاته، فأمر الرشيد بطلب الجارية فأحضرت وزينت وأجلست على سرير في مضربه الذي كان نازلاً فيه وسلمت الجارية والمضرب بما فيه من الآنية والمتاع إلى رسول نقفور، وبعث إليه بما سأل من العطر وبعث إليه التمور والأخبصة والزبيب والترياق فسلم ذلك كله رسول الرشيد، فأعطاه نقفور وقر دراهم إسلامية على برذون كميت كان مبلغه خمسين ألف درهم ومائة ثوب

ديباج ومائتي ثوب بزيون واثني عشر بازياً وأربعة أكلب من كلاب الصيد وثلاثة براذين ـ وكان نقفور اشترط ألا يخرب الرشيد حصن ذي الكلاع ولا صملة ولا سنان واشترط الرشيد عليه ألا يعمر هرقلة وعلى أن يحمل ثلثمائة ألف دينار.

وفي (سنة ١٩١) غزا الصائفة هرثمة بن أعين أحد كبار القواد وضم إليه ثلاثين ألفاً من أهل خراسان ومعه مسرور الخادم واليه في النفقات وجميع الأمور ما خلا الرياسة ومضى الرشيد إلى درب الحدث فرتب هنالك عبد اللّه بن مالك ورتب سعيد بن سلم بن قتيبة بمرعش فأغارت الروم عليها وأصابوا من المسلمين وانصرفوا وسعيد مقيم بها. وبعث محمد بن يزيد بن مزيد إلى طرسوس ـ فأقام الرشيد بدرب الحدث ثلاثة أيام من شهر رمضان ثم انصرف إلى الرقة.

وعلى الجملة فإن قوة المسلمين كانت في عهد الرشيد ظاهرة ظهوراً بيناً على الروم لما كان يقوم به الرشيد بنفسه من الغزو المتوالي ومعه عظماء القواد وكبار رجال الدولة من عرب وموالٍ وخراسانية.

العلاقة مع أوروبا:

كان في عهد الرشيد شارلمان بن بابن، وكان ملكاً على فرنسا واستولى على لمبارديا وقاد طوائف السكسون التي كانت في جرمانيا إلى الدين العيسوي بعد أن كانت وثنية واستولى على ألمانيا وإيطاليا وكان يرغب أن يكون له اسم كبير في الديار الشرقية لتكون درجته فوق درجة نقفور ملك القسطنطينية وكان يرغب أن يكون حامياً للعيسويين في البلاد الإسلامية وخصوصاً زائري القدس، فأرسل إلى بغداد سفراء يستجلبون رضا هارون الرشيد وكان لشارلمان غرض من مصافاة الرشيد فوق ما تقدم وهو إضعاف الدولة الأموية بالأندلس ففاز سفير شارلمان برضا الرشيد فسر بذلك، لأنه عده فوزاً على نقفور، ولهذا لما قدم سفير الرشيد على شارلمان قابله بمزيد الإكرام، واستفاد شارلمان من ذلك التودد فائدتين الأولى تمكنه من حرب الدولة الأموية بالأندلس وتداخله في مساعدة الخارجين عليها والثانية نيله رضا الرشيد. وقد أراد أيضاً أن يغتنم غنيمة علمية فإن أوروبا في ذلك الوقت كانت مهد جهالة، لأنه بانقراض الرومانيين وغلبة الأمم المتبربرة على أوروبا انطفأ مصباح العلم. أما الحال في البلاد الإسلامية، فكانت على العكس من ذلك علماً وعملاً سواء في ذلك بغداد وقرطبة، فسعى شارلمان في إصلاح قوانين دولته مقلداً هارون الرشيد وذهب إلى أوروبا أطباء تعلموا في البلاد الإسلامية، وكانوا من اليهود فانتخب منهم شارلمان رجلاً يقال له إسحاق وأرسله إلى الرشيد مصحوباً ببعض الهدايا وبعد أربع سنين عاد إسحاق مع ثلاثة من رجال الرشيد ومعهم هدايا وهي ساعة وراغنون وفيل وبعض أقمشة نفيسة. فلما نظرها رجال شارلمان ظنوها من الأمور السحرية وأوقعتهم في حيرة وهموا بكسر الساعة فمنعهم

الإمبراطور. وفي ذلك التاريخ اتفقوا على أمور تتعلق بحماية المسيحيين الذين يتوجهون لزيارة القدس.

أما علاقة بغداد بقرطبة فكانت شر علاقة إذ أن الرشيد كان ينظر إلى بني أمية نظر الخارجين على دولته، فكان يود محوهم ولكن القوم كانوا أكبر من ذلك وأقوى، فقاوموا شارلمان مقاومة عظيمة ولم يتمكن أن يفعل بهم شراً.

حضارة بغداد في عهد الرشيد:

وصلت بغداد في عهد الرشيد إلى قمة مجدها ومنتهى فخارها.

أما من حيث العمارة، فقد فاقت كل حاضرة عرفت لعهدها بنيت فيها القصور الفخمة التي أنفق على بناء بعضها مئات الألوف من الدنانيرو تأنق مهندسوها في إحكام قواعدها وتنظيم أمكنتها وتشييد بنيانها وصارت قصور الجانب الشرقي بالرصافة تناوح قصور الجانب الغربي، كان في الشرق قصور البرامكة وما أنشأوه هناك من الأسواق والجوامع والحمامات وبالجانب الغربي قصور الخلافة التي كانت تبهر الناظرين اتساعاً وجمالاً وامتدت الأبنية امتداداً عظيماً حتى صارت بغداد كأنها مدن متلاصقة تبلغ الأربعين على جانبي دجلة واستبحر العمران فيها لما جاورها من الثنايا وصار سكانها نحو ألفي ألف نسمة حتى ازدحمت بساكنيها وكانت متاجر البلدان القاصية تصلها براً وبحراً تجيئها من خراسان وما وراءها ومن الهند والصين ومن الشام والجزيرة والطرق إذ ذاك آمنة والسبل مطمئنة وكان الرشيد هو ووزراؤه حريصين على ذلك كل الحرص.

وأما من حيث ثروة الدولة فقد كان يرد على الخليفة ببغداد ما يبقى من خراج الأقاليم الإسلامية بعد أن تقضى جميع حاجاتها وقدر بعض المؤرخين ذلك بنحو أربعمائة ألف ألف درهم يدخل كله بيت مال الخليفة يصرف منه في مرتبات الوزراء المساعدين له والباقي يتصرف فيه حسبما يرى وهو شيء جسيم، وكان الرشيد أسمح خلفاء بني العباس بالمال يعطي منه عطاء من لا يخشى فقراً للقصاد والشعراء والكتاب والمنتجعين وقد جرى على سننه كبار وزرائه وشيوخ دولته ورؤساء قواده حتى امتلأت الأسفار بذكر عطاياهم التي قد يتردد الإنسان في صحتها وتلك الثروة العظيمة تتداولها الأيدي فتروج التجارة وتقضى الحاجات وتكثر المدنية وعلى تلك السنة زادت ثروة الناس بتلك المدينة العظمى واشتد بهم الترف حتى يقال إن جعفر بن يحيى بنى قصراً أنفق على بنائه عشرين ألف ألف درهم وتغالى الناس في حاجاتهم وتأنقوا في معيشتهم حتى صارت بغداد تبهر أعين زوارها لما يرونه من بعد الشبه بين ما عندهم وما يرون من ثرائها وبذخ أهلها وانغماسهم في الملاذ وإعطائهم أنفسهم ما تصبو إليه من اللهو والخلاعة شأن كل أمة سالت عليها سيول الثروة.

وأما العلم فإن بغداد صارت قبلة لطلاب العلم من جميع الأمصار الإسلامية يرحلون إليها ليتمموا ما بدأوا فيه من العلوم والفنون فهي المدرسة العليا لطلاب العلوم الدينية والعربية على اختلافها فقد كان فيها كبار المحدثين والقراء والفقهاء وحفاظ اللغة وآداب العرب والنحويون وكلهم قائمون بالدرس والإفادة لتلاميذهم في المساجد الجامعة التي كانت تعتبر مدارس عليا لتلقي هذه العلوم وقلّما كان يتم لإنسان وصف عالم أو فقيه أو محدث أو كاتب إلا إذا رحل إلى بغداد وأخذ عن علمائها.

وجميع هؤلاء العلماء كانوا يعيشون عيشاً رغداً مما كان يفيضه عليهم الرشيد والبرامكة ومن دونهم من الخير الواسع والبر العميم.

ولم تكن بغداد بالمقصرة في علوم الدنيا كالطب والحكمة وغيرهما من سائر الصناعات فقد حشد إليها الأطباء والمهندسون وسائر الصناع من الأقاليم المختلفة فاستفادوا العلوم ممن سبقهم من الأمم في المدينة كالفرس وأهل الهند وأهل الروم والصابئة وغيرهم، وزادوا على تلك العلوم بما منحوا من المواهب العقلية وسنرجىء الكلام على النهضة العلمية في بغداد إلى زمن المأمون.

أخلاق الرشيد:

كان الرشيد خليفة ديناً محافظاً على التكاليف الشرعية أتم محافظة، فأما صلاته فكان يصلي في كل يوم مائة ركعة إلى أن فارق الدنيا إلا أن تعرض له علة، وكان له سمير فكه هو ابن أبـي مريم المدني كان الرشيد لا يصبر عنه ولا يمل محادثته سمعه مرة يقرأ في صلاته: ﴿**ومالي لا أعبد الذي فطرني وإليه ترجعون**﴾[1] فقال ابن أبـي مريم: لا أردى واللّه فما تملك الرشيد أن ضحك في صلاته ثم التفت إليه وهو كالمغضب فقال: يا ابن أبـي مريم في الصلاة أيضاً ثم قال: إياك والقرآن والدين ولك ما شئت بعدهما.

وأما صدقته فقد كان كل يوم يتصدق من صلب ماله بألف درهم سوى العطايا التي كانت تهطل على الناس منه ولم ير خليفة قبله كان أعطى منه للمال ثم المأمون بعده.

وأما حجه فإنه كان لا يتخلف عنه إلا إذا كان مشغولاً بالغزو فهو في كل عام بين غاز وحاج وقد أقام للناس حجهم تسع مرات في سني حكمه وهي السنوات (٧٠) و (٧٣) و (٧٤) و (٧٥) و (٧٧) و (٨٠) و (٨١) و (٨٦) و (٨٨) بعد المائة وكان إذا حج حج معه من الفقهاء وأبنائهم وإذا لم يحج يحج عنه ثلثمائة رجل بالنفقة السابغة والكسوة الباهرة.

وكان يسمع وعظ الواعظين وهو عند ذلك رقيق القلب سريع الدمعة. دخل عليه ابن السماك

(١) سورة: يسّ، الآية: ٢٢.

الواعظ فقال له الرشيد: عظني فقال: يا أمير المؤمنين، اتق اللّه وحده لا شريك له واعلم أنك غداً بين يدي اللّه ربك ثم مصروف إلى إحدى منزلتين لا ثالث لهما جنة أو نار فبكى هارون حتى اخضلت لحيته فأقبل الفضل بن الربيع على ابن السماك فقال: سبحان اللّه وهل يتخالج أحداً شك في أن أمير المؤمنين مصروف إلى الجنة إن شاء اللّه لقيامه بحق اللّه وعدله في عباده وفضله ـ فلم يحفل بذلك ابن السماك من قوله ولم يلتفت إليه وأقبل على الرشيد فقال: يا أمير المؤمنين إن هذا (يعني الفضل بن الربيع) ليس واللّه معك ولا عندك في ذلك اليوم فاتق اللّه وانظر لنفسك ـ فبكى هارون حتى أشفق عليه الحاضرون وأفحم الفضل بن الربيع فلم ينطق بحرف ـ ودخل عليه مرة أخرى فبينا هو عنده إذ استسقى ماء فأتي بقلة من ماء، فلما أهوى بها إلى فيه ليشربها قال له ابن السماك: على رسلك يا أمير المؤمنين بقرابتك من رسول اللّه ﷺ لو منعت هذه الشربة بكم كنت تشربها؟ ـ قال: بنصف ملكي ـ قال: اشرب هناك اللّه ـ فلما شربها قال له: أسألك بقرابتك من رسول اللّه ﷺ لو منعت خروجها من بدنك بماذا كنت تشتريها قال: بجميع ملكي قال ابن السماك: إن ملكاً قيمته شربة ماء لجدير ألا ينافس فيه فبكى هارون ـ ولا يزال الملوك بخير ما سمعوا الوعظ وتأثروا به ولا تزال الأمة بخير ما كان فيها من يعظ الملوك ولا يخشى سطوتهم.

وأما جهاد الرشيد، فإنه كان لا يترك الخروج مع جنده بل كان غالباً في مقدمتهم حتى لا يعتاد الراحة ولا يقعده الترف عن القيام بهذا الواجب حتى كان من ضمن مآثره أنه كان يغزو سنة ويحج أخرى قال مروان بن أبي حفصة:

وسدت بهارون الثغور وأحكمت ... به من أمور المسلمين المرائر
وما انفك معقوداً بنصر لوائه ... له عسكر عنه تشظى العساكر
وكل ملوك الروم أعطاه جزية ... على الرغم قسراً عن يد وهو صاغر

وكان لهارون قلنسوة مكتوب عليها غاز حاج فكان يلبسها فقال أبو المعالي الكلابي:

فمن يطلب لقاءك أو يرده ... فبالحرمين أو أقصى الثغور
ففي أرض العدو على طمر ... وفي أرض الترفه فوق طور
وما حاز الثغور سواك خلق ... من المتخلفين على الأمور

لذلك كانت الخلافة لعهده في أعلى درجات مهابتها واحترامها في الداخل والخارج، كان الرشيد يقتفي آثار المنصور ويعمل بها إلا في بذل المال وكان لا يضيع عنده إحسان محسن ولا يؤخر ذلك في أول ما يجب ثوابه وكان يحب الشعر والشعراء ويميل إلى أهل الأدب والفقه ويكره المراء في الدين ويقول: هو شيء لا نتيجة له وبالحري لا يكون فيه ثواب وكان يحب

المديح ولا سيما من شاعر فصيح ويشتريه بالثمن الغالي. وعطاياه للشعراء والأدباء تكاد تخرج عما يعقل.

والخلال التي كانت واضحة في أعماله الشجاعة وشدة الغضب ومعاقبة المسيء بلا شفقة ولا رحمة، فكان يقود الجيش بنفسه إلى المواضع المخوفة حتى استقامت له البلاد وهابه كل خارج وثائر وكان إذا بلغه عن أحد من رعيته ما يريبه اشتد غضبه وزاد انفعاله حتى لا يكاد أحد يقدر أن يكلمه وإذا وقع عدوه في يده لم يتأخر عن أشد عقوبة له وقلما كان يعفو وبهذا فضله ابنه المأمون كما سيجيء في تاريخه.

واشتهر أن الرشيد كان يشرب النبيذ الذي يرخص أهل العراق في شربه وكان يسمع الغناء ويثيب عليه أعظم ثواب، ولذلك اشتهر في زمنه أعظم الموسيقيين والمغنين ببغداد ممن لم يأت بعده مثلهم كما يرى ذلك من اطلع على الكتاب الموسوم بالأغاني لأبي الفرج الأصبهاني.

ولا مراء أن الرشيد يعد من كبار الخلفاء ونوابغهم لولا كثرة وسواسه بالكائدين له، فإن ذلك أكثر الجاسوسية في عهده وصار المتقربون يتقربون إليه بما يتلقونه من أخبار السوء حتى فقد أعظم وزرائه وأحسنهم أثراً وأعلاهم كعباً واستبقى الفضل بن الربيع لأن أخباره ما كانت تنقطع عنه يوماً.

وفاة الرشيد:

خرج الرشيد من بغداد في خامس شعبان (سنة ١٩٢) قاصداً خراسان عندما بلغه استفحال أمر رافع بن الليث بما وراء النهر واستخلف ابنه محمداً الأمين بمدينة السلام وخرج معه ابنه عبد اللّه المأمون ولم يزل الرشيد في مسيره حتى وافى مدينة طوس في صفر (سنة ١٩٣) وهناك اشتدت به علته ولحق بربه ليلة السبت لثلاث خلون من جمادى الآخرة (سنة ١٩٣) وصلّى عليه ابنه صالح، لأن المأمون كان قد سبقه إلى مرو حاضرة خراسان ودفن الرشيد بهذه المدينة.

وكان للرشيد اثنا عشر ولداً ذكراً وأربع بنات، فذكور أولاده محمد الأمين من زبيدة بنت جعفر بن أبي جعفر وعلي من زوجته أمة العزيز أم ولد موسى الهادي ـ وعبد اللّه المأمون والقاسم والمؤتمن ومحمد المعتصم وصالح ومحمد أبو عيسى ومحمد أبو يعقوب ومحمد أبو العباس ومحمد أبو سليمان ومحمد أبو علي ومحمد أبو أحمد وهم لأمهات أولاد شتى.

وتزوج الرشيد بست زوجات. مات عن أربع منهن وهن زبيدة وأم محمد بنت صالح المسكين والعباسة بنت سليمان بن المنصور والجرشية بنت عبد اللّه العثمانية.

أثر جليل من عهد الرشيد

الخراج:

بين يدينا أثر من أجل الآثار التاريخية الاقتصادية للدولة الإسلامية في النصف الثاني من القرن الثاني وهو كتاب الخراج للفقيه أبي يوسف يعقوب بن إبراهيم الأنصاري صاحب الإمام أبي حنيفة النعمان بن ثابت (١١٣ ـ ١٨٢).

كان خليفة المسلمين في هذا التاريخ خامس بني العباس هارون الرشيد بن محمد المهدي بن أبي جعفر المنصور وكان قاضي قضاته أبا يوسف وكان الرشيد خليفة يحب أن يسود العدل بين أمته، كما كان أبوه المهدي من قبله ويحب من جهة أخرى أن تنتظم جباية الخراج وغيره من موارد بيت مال المسلمين وأن يكون ذلك على النمط المشروع الذي سنّه رسول اللّه ﷺ والخلفاء الراشدون المهديون من بعده حتى لا يقع حيف على الرعية فيثقل الجور كاهلهم ويخرب عمرانهم وحتى يكون بيت المال قائماً بما يجب عليه من مصالح الأمة وحفظ ثغورها وتأمين طرقها فكتب إلى قاضيه الأكبر رسالة ضمنها أسئلة وطلب منه أن يجيب عنها فقام أبو يوسف بما طلب منه خير قيام وكتب جوابه عن تلك الأسئلة في رسالة عظيمة الشأن، سميت بكتاب الخراج وهي التي جعلناها موضوع محاضرتنا هذه الليلة.

لم يكن أبو يوسف في رسالته ذلك الفقيه الجاف الذي هو في خيال الكثير منا يكتب جوابه مبتوراً منقولاً من مسطر سبق به أو ذلك المفتي الضعيف ينظر إلى غرض المستفتي فيجتهد أن تكون فتواه طبق رغبته بل كان ذلك العالم الناصح الذي سبر حال الأمة فعرف ما يصلحها وأدرك سر الدين الذي أوحى اللّه به إلى رسوله ﷺ لإصلاح حال الأمة فجال في ميدانه جولة الفارس العالم بثنيات الطريق وأحاط علماً بتاريخ المسائل التي يفتي فيها. فبينا نراه واعظاً لا يخاف في اللّه لومة لائم يصوغ من كلمات النصح أشدها وقعاً وأقواها تأثيراً يوجهها إلى إمامه مع رعاية الأدب واللياقة إذا هو مؤرخ يسرد تاريخ الأمور المالية وغيرها مما يتكلم فيه وكيف وضعها السلف الصالح وكيف كان غرضهم من ذلك وبينا أنت تستخرج منه لطائف التاريخ إذا بك تراه يستنبط الأحكام من تلك الوقائع مستناً بسنة أسلافه الطيبين الطاهرين ثم تراه قد سبر ما يفعله ولاة الخراج والجبايات وحواشيهم من المظالم التي يرهقون بها الرعية ويضرون بها العمارة فينبه الإمام إلى مخازيهم ويرفع صوته طالباً إجراء العدالة فيهم ويشير على إمامه بما يجب عليه من رعاية تنفيذ الحق ويبين له كيف يفعل في ذلك ليكون ناجياً بين يدي اللّه سبحانه وتعالى الذي جعله كفيلاً لحقوق الرعية.

هذا هو الكتاب الجليل الذي يعطي من قرأه صورة في غاية الجمال والكمال لذلك الفقيه المتقدم.

وغرضنا التعرف بما انتظمه هذا في الكتاب حتى يكون عندنا صورة من الجباية ونظامها في هذا العصر وإذا كان عندنا كلمة نقولها لإيضاح شيء مما قد يحتاج إلى الإيضاح نبهنا عليها.

انتظمت هذه الرسالة ثلاثة أمور:

الأول: بيان موارد الدولة على اختلافها حسبما جاءت به الشريعة ومصارف تلك الأموال.

الثاني: بيان الطريقة المثلى لجباية تلك الأموال.

الثالث: بيان بعض الواجبات التي يلزم بيت المال القيام بها مما أغفل بعض الولاة القيام به.

ونحن نتكلم في ذلك متبعين هذا الترتيب وقد يخالف طريقة ترتيب الكتاب لأن القصد تقريبه إلى النفوس من أسهل الطرق.

موارد بيت المال:

يتبين من كتاب الخراج أن موارد بيت المال تنقسم بحسب ما يجب أن تصرف فيه إلى ثلاثة أقسام:

الأول: خمس الغنائم.

الثاني: الخراج.

الثالث: الصدقات.

الغنائم:

الغنيمة كل ما أصاب المسلمون من عساكر أهل الشرك وما أجلبوا به من المتاع والسلاح والكراع. وجعل منها أبو يوسف ما أصيب من المعادن من قليل أو كثير والركاز وهو الذهب والفضة الذي خلقه اللّه في الأرض يوم خلقت. والكنوز العادية التي تصاب في غير ملك أحد وما أخرج من البحر من الحلي والعنبر كل ذلك حكمه واحد وهو أن للإمام خمسه. أما أربعة أخماسه الباقية فتكون حقاً للغانمين فيما أصيب مع المحاربين وتكون حقاً للواجد فيما عداها.

ويقسم الإمام أربعة الأخماس على القائمين سواء في ذلك أهل الديوان والمتطوعون يضرب للفارس منهم ثلاثة أسهم سهم له وسهمان لفرسه وللراجل سهم، وخالف في ذلك شيخه أبا حنيفة رحمه اللّه حيث قال: للفارس سهمان وللراجل سهم. وقال للرشيد: فخذ بأي القولين رأيت

واعمل بما ترى أنه أفضل وأخير للمسلمين فإن ذلك موسع عليك إن شاء اللّه ولست أرى أن تقسم للرجل أكثر من فرسين.

مصرف الخمس:

بيّن اللّه في كتابه مصرف الخمس في الآية من سورة الأنفال حيث يقول: ﴿**واعلموا أنما غنمتم من شيءٍ فأن للّه خمسه وللرسول ولذي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل إن كنتم آمنتم باللّه وما أنزلنا على عبدنا يوم الفرقان يوم التقى الجمعان واللّه على كل شيء قدير**﴾[1]. قال أبو يوسف: فكان ذلك الخمس يقسم في عهد رسول اللّه ﷺ للّه وللرسول سهم ولذي القربى سهم ولليتامى والمساكين وابن السبيل ثلاثة أسهم ثم قسمه أبو بكر وعمر وعثمان رضي اللّه عنهم على ثلاثة أسهم وسقط سهم الرسول وسهم ذوي القربى. وروي عن ابن عباس أنه قال: عرض علينا عمر بن الخطاب أن نزوج من الخمس أيمنا ونقضي عن غارمنا فأبينا إلا أن يسلمه لنا وأبى علينا سلفه ومع أن ذلك كان رأي علي بن أبي طالب رضي اللّه عنه فإنه قسم الخمس كما قسمه.

وذكر أبو يوسف أن الصحابة اتفقوا أن يجعلوا هذين السهمين سهم الرسول وسهم ذوي القربى في الكراع والسلاح. وروي عن عمر بن عبد العزيز أنه بعث بسهم الرسول وسهم ذوي القربى إلى بني هاشم. قال: وكان أبو حنيفة وأكثر فقهائنا يرون أن يقسمه الخليفة على ما قسمه أبو بكر وعمر وعثمان رضي اللّه عنهم. وأقول: رأى الشافعي محمد بن إدريس المطلبي رحمه اللّه أن سهم الرسول يصرف في مصالح المسلمين وسهم ذوي القربى يصرف لمن ينتسب إلى هاشم والمطلب ابني عبد مناف دون بني أخويهم عبد شمس ونوفل ويسوى في العطاء بين الأغنياء والفقراء لأن سبب الاستحقاق القرابة ويشترط فيه الرجال والنساء بالتسوية بين الذكر والأنثى كما قال المزني وأبو ثور من أصحاب الشافعي وللذكر مثل حظ الأنثيين كما قال غيرهما ـ ويقول الشافعي: قال أحمد: إلا أنه قال: إن ردوه صرف في السلاح والكراع كفعل أبي بكر وعمر وعثمان.

الخراج:

المورد الثاني من موارد الخلافة الخراج وهو كلمة تجمع ثلاثة أشياء:

١ ـ وظيفة الأرض الخراجية.

٢ ـ جزية أهل الذمة.

٣ ـ ما يأخذه العاشر ممن يمر عليه من تجار أهل الذمة والمستأمنين من أهل الحرب.

---

(١) سورة: الأنفال، الآية: ٤١.

وظيفة الأرض الخراجية:

لما غلب المسلمون على سواد العراق وعلى بلاد الجزيرة والشام في عهد أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي اللّه عنه طلب إليه بعض ذوي الرأي من الصحابة أن يقسم الأرض على الغانمين كما قسم ماأصابوه من سلاح ومتاع وأكثروا عليه في ذلك فأبى عليهم مبدئاً إلى كتاب اللّه تعالى الذي جعل هذا الفيء حقاً للمسلمين كافة الموجودين منهم والآتين بعدهم. ذكر ذلك في سورة الحشر حيث قال: **﴿للفقراء المهاجرين الذين أخرجوا من ديارهم وأموالهم يبتغون فضلاً من اللّه ورضواناً وينصرون اللّه ورسوله أولئك هم الصادقون * والذين تبوءو الدار والإيمان من قبلهم يحبون من هاجر إليهم ولا يجدون في صدورهم حاجة مما أوتوا ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون * والذين جاءو من بعدهم يقولون ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان ولا تجعل في قلوبنا غلاً للذين آمنوا ربنا إنك رءوف رحيم﴾**[1].

فجعل هذا الفيء حقاً للمهاجرين والأنصار ولمن جاء بعدهم ومن أجل ذلك لم يرض عمر بقسمة الأرض بين الغانمين، لأنه لو قسمها بينهم لم يبق لمن يأتي بعدهم شيء بل ترك الأرضين والأنهار بعمالها ليكون ذلك في أعطيات الجنود وغير ذلك، ومن هنا رأى أبو يوسف رحمه اللّه أن هذين الأرضين المفتوحة عنوة يخير فيها الإمام فإن شاء قسمها بين الغانمين الذين افتتحوها وإن لم ير قسمها ورأى الصلاح في إقرارها في يد أهلها كما فعل عمر بن الخطاب رضي اللّه عنه في السواد، فله ذلك وهي أرض خراج وليس له أن يأخذها بعد ذلك منهم وهي ملك لهم يتوارثونها ويتبايعون ويضع عليهم الخراج ولا يكلفون من ذلك ما لا يطيقون.

وإذاً يكون حد أرض الخراج ـ كل أرض من أرض الأعاجم ظهر عليها المسلمون عنوة فلم يقسمها الإمام وأبقاها بأيدي أهلها أو صالحهم عليها وصيرهم ذمة.

ويخرج من ذلك أنواع من الأراضي لا يوضع عليها الخراج وإنما تكون أرضاً عشرية وهي:

١ ـ كل أرض للعرب غير بني تغلب.

٢ ـ كل أرض من أرض الأعاجم أسلم عليها طوعاً.

٣ ـ كل أرض من أرض الأعاجم ظهر عليها المسلمون عنوة فقسمها الإمام بين الغانمين.

وسنبين حكم كل نوع بعد الكلام على أرض الخراج.

---

(١) سورة: الحشر، الآيات: ٨ ـ ١٠.

ما فعله عمر في أرض الخراج:

لما اتضح لعمر رأيه في الأرض المغنومة أرسل من قبله من يمسح أرض السواد فبلغت (٢٦,٠٠٠,٠٠٠) جريب فوظف عليها الخراج مقادير معينة من الدراهم وأطعمه حسبما رأى المندوبان اللذان أرسلهما لذلك، وهذه الوظيفة تختلف من درهمين لعشرة دراهم على الجريب فأقلها وظيفة جريب الشعير عليه درهمان وأكثرها وظيفة جريب الكرم والنخل عليه عشرة دراهم في رواية وثمانية في أخرى، وبين ذلك جريب الخضر عليه ثلاثة دراهم وجريب الحنطة أربعة دراهم أو درهم وقفيز وجريب الرطبة والسمسم والقطن خمسة دراهم وجريب القصب ستة دراهم. قال: إن جباية السواد بلغت قبل وفاة عمر بعام (١٠٠,٠٠٠,٠٠٠) درهم.

أقول: وإذا كانت المساحة كما قدمنا والجباية ما ذكرنا يكون متوسط جباية الجريب (٢,٧٥ درهم)، وهذا بالضرورة غير قفزان القمح التي كانت تؤخذ على أجربة الحنطة، لأن هذا المتوسط بدونها لا يصلح إلا إذا كان معظم الأرض يزرع شعيراً وهو بعيد. وقال ابن خرداذبه: إن عمر جبا العراق (١٢٨,٠٠٠,٠٠٠) درهم، فيكون متوسط جباية الجريب (٣,٥٥) درهم وهو أقرب من المفهوم، ولا بد أنه لم يعتبر في ذلك أجربة القمح والجريب اسم لستين ذراعاً في ستين بذراع الملك وهي (٥٧,٧٧) وبالتكسير تكون مساحة الجريب (١٢٠٠ م)، فكل ثلاثة أجربة ونصف فدان مصري. ولا بد أن ننبه هنا على ما رأيناه في كتاب صاحب السعادة المفضال يعقوب أرتين باشا الموسوم بالأحكام المرعية في الأراضي المصرية، فإنه روى عن قدامة أن الجريب اسم لستين ذراعاً في ستين بذراع الملك وظن أن ذراع الملك هي الذراع السوداء فوقع في الخطأ الحسابي الذي أنتج له أن كل أربعة أجربة و (٤/٥) جريب تعادل فداناً مصرياً مع أن هناك اختلافاً بين الذراعين كما ذكره الماوردي في كتابه الأحكام السلطانية حيث قال: إن ذراع الملك تزيد على الذراع السواد بخمسة أصابع وثلثي إصبع فتكون ذراعاً وثمناً وعشراً أي ذراعاً و (٩/٤٠)، وحقق العلامة المرحوم علي مبارك باشا أن النسبة بين الذراعين هي (٤ : ٥) فتكون ذراع الملك ذراعاً وربعاً بالسواد. وقد نتج له هذا من تقدير المتقدمين لضلع قاعدة الهرم الأكبر بأربعمائة ذراع بذراع التجار و (٥٠٠) بالذراع السواد وبقسمة أمتار قاعدة الهرم على (٤٠٠,٥٠٠) يخرج هذان الرقمان (٧٥,٧٧ س) وهو طول ذراع الملك و (٤٦,٢ س) وهو طول الذراع السواد.

وإذا كان كل (٣,٥) جريب فداناً تكون ضريبة الفدان المزروعة قمحاً (١٤) درهماً هذا هو الخراج الموظف الذي رآه عمر.

لم ير أبو يوسف رحمه اللّه ما قرره عمر رضي اللّه عنه في أمر الخراج حيث جعله وظيفة محدودة أمراً لازماً لمن يأتي بعده بل يجوز للخلفاء إذا رأوا مصلحة جمهور الزارعين في المقاسمة

أن يعدلوا إليها وقد ناظر أبو يوسف أهل العلم بالخراج في هذا الأمر، فرأى أن تحديد الخراج بكيل مسمى أو دراهم مسماة فيه ضرر على بيت المال وعلى أهل الخراج. أما وظيفة الطعام فإن كان رخيصاً رخصاً فاحشاً لم يكتف السلطان بالذي وظف عليهم ولم يطب نفساً بالحط عنهم ولم يقو بذلك الجنود ولم تشحن به الثغور ـ وإن كان غلاء فاحشاً لا يطيب السلطان نفساً بترك ما يستفضل أهل الخراج من ذلك والرخص والغلاء بيد اللّه لا يقومان على أمر واحد، وكذلك وظيفة الدراهم. ثم قال: وأما ما يدخل على أهل الخراج فيما بينهم فهو التظالم وغلبة القوي على الضعيف ثم قال ولم أجد شيئاً أوفر على بيت المال ولا أعفى لأهل الخراج من التظالم فيما بينهم وحمل بعضهم على بعض ولا أعفى لهم من عذاب ولاتهم وعمالهم من مقاسمة عادلة خفيفة فيها للسلطان رضا ولأهل الخراج من التظالم فيما بينهم وحمل بعضهم على بعض راحة وفضل. وقد رأى أن يقاسم من عمل الحنطة والشعير من أهل السواد جميعاً على خمسين للسيح منه، وأما الدوالي فعلى خمس ونصف، وأما النخل والرطاب والكرم والبساتين فعلى الثلث، وأما غلال الصيف فعلى الربع ولا يؤخذ بالخرص في شيء من ذلك ولا يحرز عليهم شيء منه يباع من التجار ثم تكون المقاسمات في أثمان ذلك أو يقوم ذلك قيمة عادلة لا يكون فيها حمل على أهل الخراج ولا يكون على السلطان ضرر. ثم يؤخذ منهم ما يلزمهم من ذلك أي ذلك كان أخف على أهل الخراج فعل ذلك بهم. وإن كان البيع وقسمة الثمن بينهم وبين السلطان أخف فعل ذلك بهم. ومن رأي أبي يوسف إعفاء ما دون خمسة أوسق من الخراج وهي (٣٠٠) صاع أو (١٦٠٠) رطل، وخالف في ذلك شيخه أبا حنيفة رحمه اللّه.

وقد أشار أبو يوسف بأن يكون حصاد الطعام ودياسه من الوسط ولا يحبس الطعام بعد الحصاد إلا بقدر ما يمكن الدياس فإذا أمكن الدياس رفع إلى البيادر ولا يترك بعد إمكانه للدياس يوماً واحداً لئلا تذهب به الأكرة والمارة والطير والدواب فيضر ذلك بالخراج. وإذا رفع إلى البيادر وصير أكداساً أخذ في دياسه ولا يحبس الطعام إذا صار في البيادر الشهر والشهرين والثلاثة لا يداس فإن في حبسه في البيادر ضرراً على السلطان وعلى أهل الخراج، وبذلك تتأخر العمارة والحرث ولا يخرص عليهم ما في البيادر ولا يحزر عليهم حزراً ثم يؤخذون بنقائص الحزر، فإن هذا هلاك لأهل الخراج وخراب للبلاد وإذا ديس الطعام وذرى قاسمهم.

ثم قال: ولا يؤخذ أهل الخراج برزق عامل ولا أجر مدى ولا احتفان ولا نزلة ولا حمولة طعام السلطان ولا يؤخذ منهم ثمن صحف ولا قراطيس ولا أجور الفيوج ولا أجور الكيالين ولا مؤنة لأحد عليهم في شيء من ذلك ولا قسمة ولا نائبة سوى الذي وصفنا من المقاسمة ولا يأخذون بثمن الأتبان ويقاسمون الأتبان على مقاسمة الحنطة والشعير كيلاً أو تباع فيقسم ثمنها

على ما وصفت من القطيعة في المقاسمة ولا يؤخذ منهم ما قد يسمونه رواجاً لدراهم يؤدونها في الخراج فإنه بلغني أن الرجل منهم يأتي بالدراهم ليؤديها في الخراج فيقتطع منها طائفة ويقال هذا رواجها وصرفها ولا يضرب رجل في دراهم خراج ولا يقام على رجله فإنه بلغني أنهم يقيمون أهل الخراج في الشمس ويضربونهم الضرب الشديد ويعلقون عليهم الجرار ويقيدونهم بما يمنعهم من الصلاة وهذا عظيم عند الله وشنيع في الإسلام.

من أجل ذلك ترى أن أبا يوسف رحمه الله دقق كثيراً في أمر من يولى جباية الخراج فأشار على إمامه أن يكون والي ذلك فقيهاً عالماً مشاوراً لأهل الرأي عفيفاً لا يطلع الناس منه على عورة ولا يخاف في الله لومة لائم ما حفظ من حق وأدى من أمانة احتسب به الجنة. وما عمل به من غير ذلك خاف عقوبة الله فيما بعد الموت تجوز شهادته إن شهد ولا يخاف منه جور في حكم إن حكم. ثم قال: إني قد أراهم لا يحتاطون فيمن يولون الخراج إذا لزم الرجل منهم باب أحدهم أياماً ولاه رقاب المسلمين وجباية خراجهم، ولعله لا يكون عرفاً بسلامة ناحية ولا عفاف ولا باستقامة طريقة ولا بغير ذلك ثم قال: وتقدم إلى من وليت أن لا يكون عسوفاً لأهل عمله ولا محتقراً لهم ولا مستخفاً بهم لكن يلبس لهم جلباباً من اللين يشوبه بطرف من الشدة والاستقصاء من غير أن يظلموا ويحملوا ما لا يجب عليهم، واللين للمسلم والغلظة على الفاجر والعدل على أهل الذمة وإنصاف المظلوم والشدة على الظالم والعفو عن الناس. قال: وإني لأرجو إن أمرت بذلك وعلم الله من قلبك إيثارك ذلك على غيره ثم بدل منه مبدل أو خالف منه مخالف أن يأخذه الله دونك وأن يكتب لك أجرك وما نوبت إن شاء الله. ولتصير مع الوالي الذي وليته قوماً من الجند من أهل الديوان في أعناقهم بيعة على النصح لك، فإن من نصحك أن لا تظلم رعيتك وتأمر بإجراء أرزاقهم عليهم من ديوانهم شهراً بشهر ولا تجري عليهم من الخراج درهماً فيما سواه.

ثم تكلم بعد ذلك فيما بلغه أنه يحصل من الولاة وحواشيهم من ظلم الناس وعسفهم وأخذهم فوق مالهم ونبه عليه وطلب منه أن يحسم ذلك كله سداً لضرر أهل الخراج ونقص الفيء.

ورأى مع هذا كله أن يبعث الإمام قوماً من أهل الصلاح والعفاف ممن يوثق بدينه وأمانته يسألون عن سيرة العمال وما عملوا به الخراج وكيف جبوه على ما أمروا به وعلى ما وظف على أهل الخراج واستقر فإذا ثبت ذلك عندك وصح أخذوا بما استفضلوا من ذلك أشد الأخذ حتى يؤدوه بعد العقوبة الموجعة والنكال حتى لا يتعدوا ما أمروا به وما عهد إليهم فيه فإن كل ما عمل به والي الخراج من الظلم والعسف فإنما يحمل على أنه قد أمر بغيره وإن أحللت بواحد منهم العقوبة الموجعة انتهى غيره واتقى وخاف وإن لم تفعل هذا بهم تعدوا على أهل الخراج واجترأوا

على ظلمهم وتعسفهم وأخذهم بما لا يجب عليهم وإذا صح عندك من العامل والوالي تعدٍّ بظلم وعسف وخيانة لك في رعيتك واحتجاز شيء من الفيء أو خبث طعمته أو سوء سيرته فحرام عليك استعماله والاستعانة به وأن تقلده شيئاً من أمور رعيتك أو تشركه في شيءٍ من أمرك.

تقبل الأرض:

كان النظام المتبع في جباية الخراج التقبل وهو جعل شخص من الأشخاص قبيلاً أي كفيلاً بتحصل الخراج وأخذه لنفسه مقابل قدر معلوم يدفعه وكان الناس يتزايدون فيما يتقبلون به الأرض فيستفيد السلطان تعجيل المال ويستفيد المتقبل الفضل بين ما دفعه وما حصله وقد كره أبو يوسف هذا النظام، فقال للرشيد: ورأيت ألا تقبل شيئاً من السواد ولا غير السواد من البلاد، فإن المتقبل إذا كان في قبالته فضل عن الخراج عسف أهل الخراج وحمل عليهم ما لا يجب عليهم وظلمهم وأخذهم بما يجحف بهم ليسلم مما يدخل فيه وفي ذلك وأمثاله خراب البلاد وهلاك الرعية والمتقبل لا يبالي بهلاكهم بصلاح أمره في قبالته ولعله يستفضل بعدما يتقبل به فضلاً كثيراً وليس يمكنه ذلك إلا بشدة منه على الرعية وضرب لهم شديد وإقامته لهم في الشمس وتعليق الحجارة في الأعناق وعذاب عظيم ينال أهل الخراج مما ليس يجب عليهم من الفساد الذي نهى اللّه عنه إنما أمر اللّه عز وجل أن يؤخذ منهم العفو وليس يحل أن يكلفوا فوق طاقتهم. وإنما أكره القبالة لأني لا آمن أن يحمل هذا المتقبل على أهل الخراج ما ليس يجب عليهم فيعاملهم بما وصفت لك فيضر ذلك بهم فيخربوا ما عمروا ويدعوه فينكسر الخراج وليس يبقى على الفساد شيء ولن يقع مع الصلاح شيء إن اللّه قد نهى عن الفساد في الأرض فقال: ﴿**ولا تفسدوا في الأرض بعد إصلاحها**﴾[1] وقال: ﴿**وإذا تولى سعى في الأرض ليفسد فيها ويهلك الحرث والنسل واللّه لا يحب الفساد**﴾[2] وإنما هلك من هلك من الأمم بحبسهم الحق حتى يشترى منهم وإظهارهم الظلم حتى يفتدى منهم. والحمل على أهل الخراج ما ليس بواجب عليهم من الظلم الظاهر الذي لا يحل ولا يصح ـ واختار أبو يوسف التقبل إذا طلبه أهل القرية أو المصر وقالوا: هو أخف علينا بشرط أن يوظف على المتقبل رتب أمين رزقه من بيت المال حتى يمنعه من ظلم إن أراده والأعذار إلى المتقبل والموالي يرفع الظلم عن الرعية والوعيد له إن حملهم ما لا طاقة لهم به أو بما ليس بواجب عليهم فإن فعل فأفوا له بما أوعد به ليكون ذلك زاجراً له وناهياً لغيره إن شاء اللّه.

القطائع:

القطائع جمع قطيعة وهي ما يمنحه الإمام من الأرض لبعض الممتازين بفعالهم من الرعية.

(١) سورة: الأعراف، الآية: ٥٦.
(٢) سورة: البقرة، الآية: ٢٠٥.

قال أبو يوسف رحمه اللّه: إن عمر رضي اللّه عنه بعد أن فتح العراق اصطفى من أرضه كل ما كان لكسرى ومرازبته وأهل بيته مما لم يكن في يد أحد أو لرجل قتل في الحرب أو لحق بأرض الحرب وكانت مساحة ما اصطفاه من هذه الأرض (٤,٠٠٠,٠٠٠ جريب) فكان عمر يقطع هذه لمن أقطع، قال أبو يوسف: وذلك بمنزلة المال الذي لم يكن لأحد ولا في يد وارث، فللإمام العادل أن يجيز منه ويعطي من كان له غناء في الإسلام ويضع ذلك موضعه ولا يحابي به فكذلك هذه الأرض. ثم قال: فأما من أخذ واحداً وأقطع آخر فهذا بمنزلة المال غصبه واحد من واحد وأعطى واحداً.

والإمام مخير في هذه الأرض بين أن يجعلها عشرية أو خراجية إن كانت تسقى من أنهار الخراج. قال أبو يوسف: وكل من أقطعه الولاة المهديون أرضاً من أرض السواد وأرض العرب والجبال من الأصناف التي ذكرنا أن الإمام يقطع منها فلايحل لمن يأتي بعدهم من الخلفاء أن يرد ذلك ولا يخرجه من يدي من هو في يده وارثاً أو مشترياً. فأما ما أخذ الولاة من يد واحد أرضاً وأقطعها آخر فهذا بمنزلة الغاصب غصب واحداً وأعطى آخر، فلا يحل للإمام ولا يسعه أن يقطع أحداً من الناس حق مسلم ولا معاهد ولا يخرج من يده من ذلك شيئاً إلا بحق يجب له عليه فيأخذه بذلك الذي وجب له عليه فيقطعه من أحب من الناس فذلك جائز له والأرض عندي بمنزلة المال فللإمام أن يجيز من بيت المال من كان له غناء في الإسلام ومن يقوى على العدو ويعمل في ذلك بالذي يرى أنه خير للمسلمين وأصلح لأمرهم وكذلك الأرضون يقطع منها الإمام من أحب من الأصناف التي سميت ولا أرى أن يترك أرضاً لا ملك لأحد فيها ولا عمارة حتى يقطعها الإمام، فإن ذلك أعمر للبلاد وأكثر للخراج. فهذا حد الإقطاع عندي على ما أخبرتك. ومن رأي أبي يوسف أن أرض الإقطاع تجعل عشرية لما يلزم صاحب الإقطاع من المؤنة في حفر الأنهار وبناء البيوت وعمل الأرض.

ومن أجل ذلك يكون وارده لبيت مال الصدقات الآتي ذكره.

موات الأرض:

قال أبو يوسف: لو أن بلاداً فتحت عنوة أو صلحاً وفي بعض قراها أرض كثيرة لا يرى عليها أثر زراعة ولا بناء لأحد وليست مرافق لقرية من القرى فهي موات؛ فمن أحياها فهي له وللإمام أن يقطع ذلك من أحب وله أن يؤاجره ويعمل بما فيه الصلاح، وقد خالف شيخه أبا حنيفة رحمه اللّه في إحياء الموات فإن الإمام يقول: لا يملك المحيي ما أحيا إلا بإذن الإمام، قال أبو يوسف: وإنما قال ذلك أبو حنيفة كيلا يتنازع الناس.

وإذا كانت الأرض الموات في أرض العشر أدى عنها العشر وإن كانت في أرض الخراج أدى عنها الخراج، وإن احتفر لها بئراً أو استنبط لها قناة كانت أرض عشر أما إن ساق إليها ماء الخراج فهي أرض خراج.

قال أبو يوسف: وأيما قوم من أرض الحرب بادوا وبقيت أرضهم معطلة ولا يعرف لأحد عليها يد ولا دعوى فأخذها رجل وأحياها وأدى عنها العشر أو الخراج فهي له وليس للإمام أن يخرجها من يده.

وجعل من الأرض الموات ما ينكشف من الجزر في دجلة والفرات إذا كان لرجل جزيرة أو أرض تلاصقها فحصنها من الماء وزرع فيها، فهي له بشرط ألا يضر ذلك بأحد ولا بسير السفن وكذلك ماعولج من البطائح بضرب المسنيات عليها وقطع ما فيها من القصب وكذلك ما عولج من الآجام ـ كل ذلك مشروط بألا يكون للأرض مالك أو ذو يد أو مرتفق، فإن المحافظة على حقوق ارتفاع الجمهور مما أكد فيه أبو يوسف، حتى منع من إنشاء الغروب في دجلة إذا كان ذلك بموضع يضر بسير السفن التي تمر في دجلة ومن فعل من ذلك شيئاً فعطبت به سفينة فهو ضامن قال أبو يوسف: ولا يترك الإمام شيئاً من ذلك إلا أمر به فهدم ونحى فإن في هذا ضرراً عظيماً فالفرات ودجلة إنما هما بمنزلة طريق المسلمين ليس لأحد أن يحدث فيه شيئاً فمن أحدث فيه شيئاً فعطب بذلك عاطب ضمن وقد أرى أن يوكل بذلك رجلاً ثقة أميناً حتى يتتبع ذلك ولا يدع من هذه الغروب شيئاً في دجلة والفرات في موضع يضر بالسفن ويتخوف عليها منه إلا نحاه وتوعد أهله على إعادة شيء منه فإن في ذلك أجراً عظيماً. وتكلم طويلاً في المياه على اختلاف أنواعها وحقوق الجمهور فيها.

المورد الثاني من موارد الخراج جزية أهل الذمة:

وضع المسلمون بعد غلبتهم على غير البلاد العربية الجزية على الرؤوس وهذه الجزية يقابلها من المسلمين الحماية ودفع العدو عنهم. وذلك أنهم لم يكونوا يدخلون مع المسلمين في حروبهم وقد رأيت من السنن العمرية أن من استعين به من غير الملة لا يدفع جزية. روى الطبري في حوادث (سنة ٢٢) من الهجرة أن عبد الرحمٰن بن ربيعة أحد قواد عمر لما توجه من أذربيجان لفتح الباب أتاه ملكه شهرياز فقال له: إني بإزاء عدو كلب وأمم مختلفة لا ينسبون إلى أحساب وليس ينبغي لذي الحسب والعقل أن يعين أمثال هؤلاء ولا يستعين بهم على ذوي الأحساب والأصول وذو الحسب قريب ذي الحسب حيث كان ولست من القبح في شيء ولا من الأرمن وإنكم قد غلبتم على بلادي وأمتي فأنا اليوم منكم وبدي مع أيديكم وصفوي معكم وبارك الله لنا ولكم وجزيتنا إليكم النصر لكم والقيام بما تحبون فلا تذلونا بالجزية فتوهنونا لعدوكم. فقال

عبد الرحمٰن: فوقي رجل فسر إليه فجوزه فسار إلى سراقة بن عمرو فلقيه بمثل ذلك فقال سراقة: قد قبلت ذلك فيمن كان معك على هذا ما دام عليه ولا بد من الجزاء ممن يقيم ولا ينهض فقبل ذلك وصار سنة فيمن كان يحارب العدو من المشركين وفيمن لم يكن عنده الجزاء إلا أن يستنفروا فتوضع عنهم جزية تلك السنة وكتب سراقة إلى عمر بن الخطاب بذلك فأجازه وحسنه وكتب لهم سراقة بذلك كتاباً.

فهذا مما يستأنس به على فكرة المسلمين إذ ذاك في أمر الجزية: قال أبو يوسف: إن الجزية واجبة على جميع أهل الذمة ما خلا نصارى تغلب وأهل نجران خاصة والذي يجب عليه الجزية منهم الرجال دون النساء والصبيان ولا تؤخذ من مسكين ولا من أعمى لا حرفة له ولا عمل ولا من مقعد لا مال له ولا من راهب ولا من شيخ كبير لا يستطيع العمل ولا مال له، وليس في مواشي أهل الذمة من الإبل والبقر والغنم زكاة.

وقد قدر أبو يوسف الجزية ثلاث فئات (٥٨ درهماً) على الموسرين و (٢٤) على المتوسطين و (١٢) على العمال.

ثم قال أبو يوسف: وينبغي يا أمير المؤمنين أيدك اللّٰه أن تتقدم في الرفق بأهل ذمة نبيك وابن عمك محمد ﷺ والتفقد لهم حتى لا يظلموا ولا يؤذوا ولا يكلفوا فوق طاقتهم ولا يؤخذ شيء من أموالهم إلا بحق يجب عليهم.

أما نصارى بني تغلب فتؤخذ منهم صدقة المسلمين مضاعفة. هكذا فعل عمر بن الخطاب رضي اللّٰه عنه.

وقد تكلم أبو يوسف على ما منح لأهل الذمة من الامتيازات في دينهم وكنائسهم وبيعهم، فقال: إنه كان قد جرى الصلح بين المسلمين وأهل الذمة في أداء الجزية على ألا تهدم بيعهم ولا كنائسهم داخل المدينة ولا خارجها وعلى أن يحقنوا لهم دماءهم وعلى أن يقاتلوا من ناوأهم من عدوهم وعلى أن يخرجوا بالصلبان في أعيادهم وعلى أن يذبوا عنهم فأدوا الجزية على هذا الشرط وجرى الصلح بينهم على ألا يحدثوا بناء بيعة ولا كنيسة فافتتحت الشام كلها والحيرة إلا أقلها على هذا، فلهذا تركت البيع والكنائس ولم تهدم. ثم اقتص تاريخ ما أعطاه القواد لأهل الذمة في الأقاليم المختلفة من هذه الشروط وروي عن رسول اللّٰه ﷺ أنه قال: «من ظلم معاهداً أو كلفه فوق طاقته فأنا حجيجه» وكان فيما تكلم به عمر بن الخطاب رضي اللّٰه عنه عند وفاته: أوصي الخليفة من بعدي بذمة رسول اللّٰه ﷺ أن يوفي لهم بعهدهم وأن يقاتل من ورائهم ولا يكلفوا فوق طاقتهم.

المورد الثالث من موارد الخراج العشور:

لم تكن العشور من الموارد التي ذكرها القرآن الكريم ولكنها حدثت في عهد عمر بن الخطاب رضي اللّه عنه وسبب ذلك أن أبا موسى الأشعري كتب إليه: إن تجاراً من قبلنا من المسلمين يأتون أرض الحرب فيأخذون منهم العشر فكتب إليه عمر: خذ أنت منهم كما يأخذون من تجار المسلمين وخذ من أهل الذمة نصف العشر ومن المسلمين من كل أربعين درهماً وليس فيما دون المائتين شيء، فإذا كانت مائتين ففيها خمسة دراهم وما زاد فبحسابه. وروي أن أهل منبج قوم من أهل الحرب وراء البحر كتبوا إلى عمر بن الخطاب رضي اللّه عنه دعنا ندخل أرضك تجاراً وتعشرنا فشاور عمر أصحاب رسول اللّه ﷺ في ذلك فأشاروا عليه به فكانوا أول من عشر من أهل الحرب. وبعث زياد بن حدير الأسدي على عشور العراق والشام. فصار ذلك سنة في المرور بأموال التجارة خاصة وما يرد منها من أهل الحرب وأهل الذمة سبيله سبيل الخراج، أما ما يرد من المسلمين فسبيله سبيل الصدقات ولذلك إذا قال المسلم قد أديت زكاة هذا المال الذي في يدي صدق في يمينه.

قال أبو يوسف: رأيت أن تولي العشور قوماً من أهل الصلاح والدين وتأمرهم ألا يتعدوا على الناس فيما يعاملونهم به فلا يظلموهم ولا يأخذون منهم أكثر مما يجب عليهم وإن يمتثلوا ما رسمناه لهم ثم تتفقد بعد أمرهم وما يعاملون به من يمر عليهم وهل يجاوزون ما قد أمروا به، فإن كانوا قد فعلوا ذلك عزلت وعاقبت وأخذتهم بما يصح عندك عليهم لمظلوم أو مأخوذ منه أكثر مما يجب عليه وإن كانوا قد انتهوا إلى ما أمروا به وتجنبوا ظلم المسلم والمعاهد أثبتهم على ذلك وأحسنت إليهم، فإنك متى أثبت على حسن السيرة والأمانة وعاقبت على الظلم والتعدي بما تأمره به في الرعية يزيد المحسن في إحسانه ونصحه وارتدع الظالم عن معاودة الظلم والتعدي وأمرتهم أن يضيفوا الأموال بعضها إلى بعض بالقيمة.

مصاريف بيت مال الخراج:

الخراج الذي يتكوّن مما ذكرنا من هذه الموارد الثلاث هو دعامة مالية الدولة ومصرفه المصالح العامة، لأنه حق للجمهور كله وهذه المصالح بحسب ما يرى الإمام وقد ذكر أبو يوسف بعضها لورودها في أسئلة الخليفة وهي:

أولاً ـ أرزاق القضاة والولاة والعمال:

قال أبو يوسف: فيجري على والي كل مدينة وقاضيها بقدر ما يحتمل وكل رجل تصيره في عمل المسلمين فأجر عليه من بيت مالهم ولا تجر على الولاة والقضاة من مال الصدقة شيئاً إلا

والي الصدقة فإنه يجري عليه منها، فأما الزيادة في أرزاق القضاة والعمال والولاة والنقصان مما يجري عليهم فذلك إليك، ومن رأيت أن تزيده منهم في رزقه زدت ومن رأيت أن تحط من رزقه حططت؛ أرجو أن يكون ذلك موسعاً عليك وكل ما رأيت أن اللّه تعالى يصلح به أمر الرعية فافعله ولا تؤخره فإني أرجو لك بذلك أعظم الأجر وأفضل الثواب.

وقد سأله الرشيد عن رأيه فيما يجري على القاضي إذا صار إليه ميراث من مواريث الخلفاء وبني هاشم من الذي يصير إليه ويوكل من قبله من يقوم بضياعهم ومالهم فأجاب سلباً وقال: إنما يعطى القاضي رزقه من بيت المال ليكون قيماً للفقير والغني والصغير والكبير ولا يأخذ من مال الشريف ولا الوضيع إذا صارت إليه مواريثه رزقاً ولم تزل الخلفاء تجري للقضاة الأرزاق من بيت مال المسلمين، فأما من يوكل بالقيام بتلك المواريث في حفظها والقيام بها فيجري عليهم من الرزق بقدر ما يحتمل ما هم فيه فلا يجحف بمال الوارث فيذهب به ويأكله الوكلاء والأمناء ويبقى الوارث هالكاً وما أظن كثيراً من القضاة واللّه أعلم يبالي بما صنع وكيفما عمل ولا يبالي أكثر من معهم أن يفقروا اليتيم ويهلكوا الوارث إلا من وفقه اللّه تعالى منهم.

ثانياً ـ أعطيات الجنود وهي مرتبات العسكر:

ولم يكن في حياة النبي ﷺ مرتبات معينة للجنود الذين كانوا يتألفون من جميع أفراد المسلمين. وإنما كانوا يأخذون مالهم في أربعة أخماس ما يغنمون وفيما يرد من خراج الأراضي التي أبقيت في أيدي أهلها كأرض خيبر، ولما ولي أبو بكر رضي اللّه عنه أعطى الناس وسوى بينهم في العطاء قائلاً: هذا معاش فالأسوة فيه خير من الأثرة، فلما ولي عمر رضي اللّه عنه رأى في ذلك غير رأي أبي بكر وقسم العطاء مفضلاً الأسبق فالأسبق وهذا قوله بنصه: واللّه الذي لا إلّه إلا هو ما أحد إلا وله في هذا المال حق أعطيه أو منعه وما أحد أحق به من أحد إلا عبد مملوك وما أنا فيه إلا كأحدكم ولكننا على منازلنا من كتاب اللّه عز وجل وقسمنا من رسول اللّه ﷺ، فالرجل وتلاده في الإسلام والرجل وقدمه في الإسلام والرجل وغناؤه في الإسلام والرجل وحاجته في الإسلام. بناء على هذه القواعد فرض العطاء فكانت المرتبات كما يأتي:

(١٢٠٠٠) درهم لأزواج النبي ﷺ ولعمه العباس.

(٥٠٠٠) درهم لمن شهد بدراً من المهاجرين والأنصار وألحق بهم الحسن والحسين.

(٤٠٠٠) درهم لمن كان إسلامه كإسلام أهل بدر ولم يشهد وألحق بهم أسامة بن زيد.

(٣٠٠٠) لعبد اللّه بن عمر ولبعض أبناء المهاجرين والأنصار كعمر بن أبي سلمة.

(٢٠٠٠) لأبناء المهاجرين والأنصار.

(٨٠٠) لأهل مكة.

(٤٠٠) و (٣٠٠) لسائر الناس.

(٦٠٠) و (٤٠٠) و (٣٠٠) و (٢٠٠) لنساء المهاجرين والأنصار.

وكان يفرض لأمراء الجيوش والقرى في العطاء ما بين (٩٠٠٠) و (٨٠٠٠) و (٧٠٠٠) على قدر ما يصلحهم من الطعام وما يقومون به من الأمور وكان للمنفوس إذا طرحته أمه (١٠ دراهم) فإذا ترعرع بلغ به (٢٠٠) فإذا بلغ زاده.

وكان للعطاء ديوان تسجل فيه أسماء المرتزقين ويقبضون عطاءهم على رأس السنة حسبما هو وارد فيه والذي أوجد هذا الديوان هو عمر بن الخطاب رضي اللّه عنه.

ولما كثر الناس عن الحاجة واضطرتهم المدنية إلى أن يشتغل كثير من الأمة بغير الجهاد من الصنائع اقتصر الديوان على ما تقوم به حاجة الأمة من الجيش، وكان بعض من ليس مرتزقاً في الديوان يدعوه حبه للجهاد أن يذهب مع الجيش فلا يمنع ويسمون هذا متطوعاً وكانوا كثيرين يلازمون الثغور ويخرجون مع الجيوش.

ثالثاً ـ كري الأنهار وإصلاح مجاريها:

وقال أبو يوسف رحمه اللّه: وإذا احتاج أهل السواد إلى كري أنهارهم العظام التي تأخذ من دجلة والفرات كريت لهم، وكانت النفقة من بيت المال ومن أهل الخراج ولا يحمل ذلك كله على أهل الخراج.

وأما الأنهار التي يجرونها إلى أرضهم ومزارعهم وكرومهم ورطابهم وبساتينهم ومباقلهم وما أشبه ذلك فكريها عليهم خاصة ليس على بيت المال من ذلك شيء.

وأما البثوق والمسنيات والبريدات التي تكون في دجلة والفرات وغيرها من الأنهار العظام، فإن النفقة على هذا كله من بيت المال لا يحمل على أهل الخراج من ذلك شيء، لأن مصلحة هذا على الإمام خاصة لأنه أمر عام لجميع المسلمين فالنفقة عليه من بيت المال، لأن عطب الأرضين من هذا وشبهه وإنما يدخل الضرر من ذلك على الخراج ولا يولى النفقة على ذلك إلا رجل يخاف اللّه يعمل في ذلك بما يجب عليه للّه قد عرفت أمانته وحمدت مذهبه ولا تول من يخونك ويعمل في ذلك بما لا يحل ولا يسعه يأخذ المال من بيت المال لنفسه ومن معه أو يضيع المواضع المخوفة ويهملها ولا يعمل عليها شيئاً يحكمها به حتى تنفجر فتغرق ما للناس من الغلات وتخرب منازلهم وقراهم، ثم وجه من يتعرف ما يعمل به وإليك في هذه المواضع المخوفة منها وما يمسك

من العمل عليها مما قد يحتاج إلى العمل وما تفجر وما السبب في انفجاره ثم عامله حسبما يأتيك الخبر عنه من حمد لأمره أو ذم وإنكار وتأديب.

رابعاً: حفر الترع بعد التثبت من نفعها بواسطة من لهم بصيرة ومعرفة.

فإذا تبين الإمام ذلك أمر بحفر تلك الترع وجعل النفقة من بيت المال ولا يحمل النفقة على أهل البلد فإنهم إن يعمروا خير من أن يخربوا وإن يعزوا خير من أن يذهب مالهم ويعجزوا.

خامساً ـ الإجراء على المسجونين:

قال جواباً لسؤال الرشيد عنهم: لا بد لمن كان في مثل حالهم إذا لم يكن له شيء يأكل منه لا مال ولا وجه شيء يقيم به بدنه أن يجرى عليه من الصدقة أو من بيت المال من أي الوجهين فعلت، فذلك موسع عليك وأحب إلي أن تجري من بيت المال على كل واحد منهم ما يقوته فإنه لا يحل ولا يسع إلا ذلك قال: والأسير من أسرى المشركين لا بد أن يطعم ويحسن إليه حتى يحكم فيه فكيف برجل مسلم قد أخطأ وأذنب يترك يموت جوعاً وإنما حمله على ما صار إليه القضاء أو الجهل ولم تزل الخلفاء تجري على أهل السجون ما يقوتهم في طعامهم وأدمهم وكسوتهم الشتاء والصيف وأول من فعل ذلك علي بن أبي طالب كرم اللّه وجهه بالعراق ثم فعله معاوية بالشام ثم فعله الخلفاء من بعده.

قال أبو يوسف: فمر بالتقدير لهم ما يقوتهم في طعامهم وأدمهم وصير ذلك دراهم تجري عليهم في كل شهر يدفع ذلك إليهم، فإنك إن أجريت عليهم الخبز ذهب به ولاة السجن والقوام والجلاوذة وولي ذلك رجل من أهل الخير والصلاح يثبت أسماء من في السجن ممن تجري عليهم الصدقة وتكون الأسماء عنده ويدفع ذلك إليهم شهراً بشهر يقعد ويدعو باسم رجل رجل ويدفع ذلك إليه في يده، فمن كان منهم أطلق وخلي سبيله رد ما يجري عليه ويكون للأُجراء عشرة دراهم في الشهر لكل واحد وليس كل من في السجن يحتاج إلى أن يجرى عليه وكسوتهم في الشتاء قميص وكساء، وفي الصيف قميص وإزار ويجرى على النساء مثل ذلك وكسوتهن في الشتاء قميص ومقنعة وكساء، وفي الصيف قميص وإزار ومقنعة وأغنتهم عن الخروج في السلاسل ويتصدق عليهم الناس فإن هذا عظيم أن يكون قوم من المسلمين قد أذنبوا وأخطأوا وقضى اللّه عليهم ما هم فيه فحبسوا يخرجون في السلاسل يتصدقون وما أظن أهل الشرك يفعلون هذا بأسارى المسلمين الذين في أيديهم فكيف ينبغي أن يفعل هذا بأهل الإسلام؟ وإنما صاروا إلى الخروج في السلاسل يتصدقون لما هم فيه من جهد الجوع فربما أصابوا ما يأكلون وربما لم يصيبوا وإن ابن آدم لم يعر من الذنوب فتفقد أمرهم ومر بالإجراء عليهم مثل ما فسرت لك ومن مات منهم ولم يكن له ولي ولا قرابة غسل وكفن من بيت المال وصلّي عليه ودفن فإنه بلغني

وأخبرني به الثقات أنه ربما مات منهم الميت الغريب فمكث في السجن اليوم أو اليومين حتى يستأمر الوالي في دفنه وحتى يجمع أهل السجن من عندهم ما يتصدقون ويكثرون من يحمله إلى المقابر فيدفن بلا غسل ولا كفن ولا صلاة فما أعظم هذا في الإسلام وأهله.

المورد الثالث من موارد بيت المال الصدقات

وهي ما يؤخذ من المسلمين:

أولاً: من أنعامهم وهي الإبل والبقر والغنم على حساب معين في الفقه الإسلامي.

ثانياً: من نقودهم التي هي الذهب والفضة باعتبار ٢,٥ من كل مائة.

ثالثاً: من أموال تجاراتهم ومنها ما يمرون به على العاشر يؤخذ منهم كذلك باعتبار ٢,٥ من كل مائة.

رابعاً: ما يؤخذ من حاصلاتهم الزراعية وهي أعشار الأرض يؤخذ مما سقي بدون مؤنة العشر ومما سقي بمؤنة نصف العشر.

قال أبو يوسف رحمه اللّه: ومر يا أمير المؤمنين باختيار رجل أمين ثقة عفيف ناصح مأمون عليك وعلى رعيتك فوله جمع الصدقات في البلدان ومره فليوجه فيها أقواماً يرتضيهم ويسأل عن مذاهبهم وطرائقهم وأماناتهم يجمعون إليه صدقات البلدان فإذا جمعت إليه أمرته فيها بما أمر اللّه جل ثناؤه به فأنفذه ولا تولها عمال الخراج فإن مال الصدقة لا ينبغي أن يدخل في مال الخراج وقد بلغني أن عمال الخراج يبعثون رجالاً من قبلهم في الصدقات فيظلمون ويعسفون ويأتون ما لا يحل ولايسع وإنما ينبغي أن يتخير للصدقة أهل العفاف والصلاح فإذا وليتها رجلاً ووجه من قبله من يوثق بدينه وأمانته أجريت عليهم من الرزق بقدر ما ترى ولا تجر عليهم ما يستغرق أكثر الصدقة.

مصارف الزكاة:

الزكاة تصرف بالنص إلى ثمانية أصناف من الناس قال اللّه تعالى: ﴿**إنما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم وفي الرقاب والغارمين وفي سبيل اللّه وابن السبيل فريضة من اللّه**﴾[1].

قال أبو يوسف: فالمؤلفة قلوبهم قد ذهبوا (وخالف الحنفية في ذلك أكثر الأئمة)، والعاملون عليها يعطيهم الإمام ما يكفيهم من غير سرف ولا تقتير وقسمت بقية الصدقات بينهم للفقراء والمساكين سهم، والغارمون وهم الذين لا يقدرون على قضاء ديونهم سهم وفي السبيل المنقطع بهم سهم، يحملون به ويعاونون. وفي الرقاب سهم، وسهم في إصلاح طرق المسلمين

(١) سورة: التوبة، الآية: ٦٠.

ويقسم سهم الفقراء والمساكين من صدقة ما حول كل مدينة في أهلها ولا يخرج منها فيتصدق به على أهل مدينة أخرى، وأما غيره فيصنع به الإمام ما أحب من هذه الوجوه التي سمى اللّه تعالى في كتابه، وإن صيرها في صنف واحد ممن سمى اللّه تعالى أجزأ.

٦ ـ الأمين

هو محمد الأمين بن هارون الرشيد وأمه زبيدة بنت جعفر بن المنصور فهو هاشمي أباً وأماً ولم يتفق ذلك لغيره من الخلفاء إلا لعلي بن أبي طالب رضي اللّه عنه ولابنه الحسن.

ولد (سنة ١٧٠) من الهجرة وولاه أبوه العهد (سنة ١٧٥)، وكان قائماً مقام أبيه ببغداد حينما سافر إلى خراسان، ولما مات الرشيد بطوس بويع له في عسكر الرشيد بالخلافة ووصل الخبر إلى بغداد فبايعه الخاصة والعامة واستمر في الخلافة إلى أن قتل في (٢٥ محرم سنة ١٩٨ ـ ٥ سبتمبر سنة ٨١٣) فكانت مدته أربع سنوات إلا أربعة أشهر تقريباً.

الحال الداخلية لذلك العهد:

كانت هذه المدة التي وليها الأمين مملوءة بالمشاكل والاضطرابات بين الأخوين الأمين والمأمون وكادت الأمة تذهب بينهما ضياعاً وسبب ذلك ما فعله الرشيد من ولاية العهد لأولاده الثلاثة أحدهم بعد الآخر وقسمته البلاد بينهم كما قدمنا ونحن نبين كيف ابتدأت المشاكل وكيف انتهت ونبين آثارها في الأمة:

لما كان الرشيد بطوس جدد البيعة لابنه المأمون على القواد الذين معه وأشهد من معه من القواد وسائر الناس أن جميع من معه من الجند مضمومون إلى المأمون وأن جميع ما معه من مال وسلاح وآلة وغير ذلك للمأمون ولما علم الأمين وهو ببغداد مرض أبيه وأنه لمآبه أرسل من يفيده الأخبار كل يوم وأرسل كتباً تسلم إلى من أرسلت إليه بعد وفاة الرشيد فلما توفي كان من تلك الكتب كتاب للمأمون يعزيه فيه عن أبيه ويأمره أن يأخذ البيعة على من قبله للأمين بالخلافة وللمأمون بولاية العهد والقاسم المؤتمن بعده. ومنها كتاب لصالح بن الرشيد وقد كان أكبر ولد الرشيد الذين معه وهو الذي صلى عليه حين مات وقد أمره فيه بالاجتهاد والتشمير وأن يأخذ البيعة على من معه للأمين ثم المأمون ثم المؤتمن على الشريطة التي اشترطها الرشيد وأمره بالمسير إليه مع جميع الجنود والذخائر والسلاح وقال له في الكتاب وإياك أن تنفذ رأياً أو تبرم أمراً إلا برأي شيخك وبقية آبائك الفضل بن الربيع وفيه: وإن أمرت لأهل العسكر بعطاء أو أرزاق فليكن الفضل بن الربيع المتولي لإعطائهم على دواوين يتخذها لنفسه بمحضر من أصحاب الدواوين فإن الفضل بن الربيع لم يزل مثل ذلك لمهمات الأمور.